
مكتبة
نوبل للآداب
2008
جان ماري غوستاف لوكليزيو
أغنية بروتانية
الطفل و الحرب
ترجمة : معن السهوي
تليجرام : هنا سور الأزبكية




# أغنية بروتانية
# الطفل والحرب

أغنية برونانية والطفل والحرب - حكايتان

Chanson bretonne *Suivi de* L'Enfant et la guerre *(Deux contes)*


تأليف: جان ماري غوستاف لوكليزيو

Jean-Marie Gustave Le Clézio

ترجمها عن الفرنسية: معن السهوي






تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 9 - 97 - 641 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2023



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838

الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة، مركز الأعمال.

جوال: 557195187 971+

البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:
mamdouhadwan.net

dwan.Publishing.House

ter.com /AdwanPH

s, 2020

دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+

البريد الإلكتروني:
info@darsard.net

الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net




جان ماري غوستاف لوكليزيو



# أغنية بروتانية
# الطفل والحرب

حكايتان

ترجمها عن الفرنسية: معن السهوي


تليجرام
غواص في بحر الكتب


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

# أغنية بروتانية

على الرغم من أني لم أولد فيها، ولم أقضِ فيها أكثر من بضعة أشهر كلّ صيف بين عامي 48 و54، إلا أنها أكثر أرضٍ طبعت في نفسي أحاسيس وذكريات. الحياة مختلفة في إفريقيا، وحين انتهت في عام 48 مع عودة والدي في الخمسينيات للاستقرار في فرنسا، نسيتها. لم أرفضها ولكنّي صرفت نظري عنها مثل شيء مستحيل وغير واقعي، عظيم وربما خطير.

بروتاني كانت مألوفة وعائلية، لأنّي نشأت على فكرة أننا (نحن الذين نحمل هذا الاسم وهذه الأصول) كنا بروتانيّين، وأن خيطاً لا مرئياً يربطنا بهذه الأرض منذ زمن بعيد.

لن أسرد بشكلٍ مرتّب زمنياً ذكرياتي، فالذكريات تبعث على الضجر والأطفال لا يكترثون للتسلسل الزمني. تتوالى الأيام بالنسبة لهم ليس لتشكيل تاريخ، بل لتوسيع الآفاق وملء الوقت. لتتضاعف الأيام وتتكسّر ويدوّي صداها.

# سانت مارين

إن عدت اليوم إلى قرية طفولتي، «سانت مارين»، تلك القرية التي كنت أتوجّه إليها كلّ صيف مع انتهاء العام الدراسي، فلن أتعرّف إلى أيّ شيء فيها تقريباً. الشارع الطويل الواصل بين مدخلها ورأس «كامبريت» ما زال موجوداً في مكانه دون أيّ تغيير في عرضه وانحناءاته. أرى حوض تحميل السفن والمنازل القديمة وكوخ البحّارة والكنيسة الصغيرة. على الرغم من أن كلّ شيء ما زال في مكانه، إلّا أنّ شيئاً ما قد تغيّر. لقد عسف الزمن، عليّ وعلى المنازل من دون شكّ، غيّر المقاييس وحدّث المشهد.

عُبّد الطريق وبُرقش بالدهان الأبيض لتحديد أماكن وقوف السيارات، والانعطافات، والخطوط الفاصلة، وعلامات التوقّف. أُنشئت مستديرات للتحكّم بحركة السيارات، ونُصبت عوارض خشبية لمنع مرور عربات النوم المتنقّلة، ولوحات لتنظيم وقوف السيارات، وقوائم وأطواق حديدية لمنع وقوفها. افتُتحت المقاهي ومحلّات الفطائر المحلّاة مع شرفاتها ومظلّاتها، ودكاكين بيع البطاقات البريدية والتذكارات. ينضح هذا المشهد بحداثة ريفيّة كما لو أنّ القرية طُليت بمادة تجعلها سدودة للزمن،

لحفظها مما يمكن له تغيير ماضيها، مادّة كتلك التي يدهن بها بائع التحف أثاثه القديم. يأتي الزوّار اليوم إلى «سانت مارين» بالسيارة ولا يتوقّفون فيها. حجم الزوّار صيفاً كبير بمكان يجب معه إكمال الطريق حتى الرأس، ربما لالتقاط بضع صور ثم العودة. يأتي الزوّار ويرحلون. على كلّ حال، هنا عشت كلّ تلك الأيام، كلّ سنة في فصل الصيف. هنا ملأت مخيّلتي بالصور واكتشفت طفولتي.

من الصعب الربط بين ماضي القرية وما آلت له حالها الآن. لقد تغيّر العالم بالطبع، و«سانت مارين» لا تشذّ عن هذه القاعدة. ولكن لِمَ ما حصل هنا أثّر فيّ بشكل أكبر؟ ما الصورة التي احتفظت بها في داخلي كسرٌ ثمين، والتي أصبح الكاريكاتير المعمول عنها يوجلني أكثر من أيّ مكان آخر، ويعطيني الانطباع بأن كنزاً ما قد سُرق مني؟

كانت «سانت مارين» عبارة عن هذا الشارع الطويل الذي كنا، عائلتي وأنا، نسلكه قادمين من جنوب فرنسا على متن سيارة «رينو موناكاتر» المضادّة للفيضانات، لقضاء إجازة من ثلاثة أشهر مثالية تملؤها المغامرة والحرية والغربة. لدى وصولنا، لم تكن الكنيسة تشكّل مركز القرية النابض بقدر ما كانت العَبّارة، ذلك السطح الحديدي العائم الخارج عن المألوف، الذي يعبر مصبّ نهر «أوديه» وهو يصرّ على طول سلسلته الحديدية. تشييد الجسر الضخم (وغير المفيد ربما) المسمّى، بنوع من الأبّهة، جسر «كورنواي»، على مسافة من المصبّ، كان السبب في التغيير الحاصل والدليل عليه. أيام ما كانت العبّارة تعمل، لم يكن أحد يستخدمها عن طيب خاطر، فلقد كانت بطيئة وضاجّة وتنبعث منها رائحة الشحم الذي

يلطِّخ الأحذية. ولِمَ الركوب بها، للعبور إلى الضفة المقابلة من النهر؟ إلى «بينوديه»، حيث لم يكن هنالك شيءٌ يذكر، حيث الناس يحتشدون على الشواطئ وشرفات المقاهي وأماكن التخييم. الحداثة كانت قد وصلت إلى الجانب الآخر، وكان يكفي تخيّلها من هذه الضفة، أو في حال كان المرء مهتمّاً بها، ركوب العبّارة بشاحنته مع الدرّاجات الهوائية إلى الضفة المقابلة. ثمن العبور كان بخساً، والذهاب إلى هناك لم يكن يعود على المرء بفائدة تذكر. أتذكّر أنه كان زهيداً، مئة قرش، كانت جدتي لتقول، أو أقلّ، وربما مجّاناً للأطفال الذين يأخذون بالقفز على سطح العبّارة لحظة انطلاقها. يستغرق عبور المصبّ عشر دقائق، ولكن في أيام المدّ العالي أو حين تعصف الريح، تشدّ العبّارة سلسلتها، وتنجرف، وتصرّ، وتهتزّ على وقع تلاطم أمواج البحر وتيّارات النهر. يقوم عالمٌ آخر على الضفة المقابلة. في ذلك الزمن، كانت «بينوديه» قبلة المصطافين والمخيّمين. العبور من «سانت مارين» إليها كان يشبه تجاوز الحدود من بروتاني التقليدية المنسيّة والمتخلّفة قليلاً، إلى العالم المتحضّر بطرقه وفنادقه ومقاهيه ودور سينماه، وبالأخص شواطئه العامرة المغطّاة بالمظلّات والمترعة بالناس المستلقين في الشمس. لا أعلم ما إن كانت هذه الأمور محطّ اهتمام للأطفال، لا أذكر أني كنت مهتمّاً بالحداثة، بالضوضاء أو بجمهرة الناس؛ ولكنها كانت كذلك بالنسبة للبالغين الذين قرّروا يوماً أن العبّارة الصدئة والالتفاف عبر شوارع «كامبير» الساحلية لم يعودا كافيين لاستيعاب حركة السيارات والسيّاح، وأنه يجب بناء جسر.

جسر «كورنواي» رائع. لم أشهد بناءه لأننا في ذلك الحين كنا قد توقّفنا عن المجيء إلى بروتاني. السفرة إلى هناك من «نيس» كانت طويلة على

سيارتنا القديمة، كما أن والدي كان يرغب بزيارة أمكنة أخرى. زد على ذلك، أننا، أنا وأخي، كنا قد كبرنا وأصبحنا نفضّل قضاء أشهر الصيف في قيظ «نيس»، أو الذهاب إلى «هاستينغز» أو «برايتون» في جنوب إنكلترا، لاكتشاف حانات الحليب(*) والتودّد للفتيات.

عدت إلى هناك بعد سنوات طويلة وسلكت الجسر. لتشييده، أُنشِئت شبكة من طريق سريع بثلاثة مسارات أو أربعة، ومستديرات، وعُقد للدخول والخروج. في ذلك الوقت، كان سلوك الجسر بأحد الاتجاهات مأجوراً، ومجانياً بالاتجاه الآخر (الأمر الذي كان بلا شكّ مخالفاً للعرف العام في بروتاني). بمعنى آخر، لقد كان الجسر عبارة عن شركة لا بدّ أن المصارف قد استثمرت فيها. يشعر من يسلك الجسر بأنه يحلّق فوق مصبّ نهر «أوديه» على ارتفاع طيران النوارس. دُهشت لرؤية الدرجة التي ينكمش معها المنظر الطبيعي من على هذا العلوّ.

من على سطح العبّارة، يبدو نهر «أوديه» كبيراً كنهر الأمازون، مع ضفاف ضبابية ودوّامات سوداء اللون وانفتاحه على البحر من جهة جزر «جلينان». إلا أنه من فوق الجسر يبدو كمجرى مائي هادئ، ريفي، ضيّق، مرقّط بمراكب بيضاء صغيرة تتهادى على سطح المياه كذباب فوق جسد ميّت. خلال سنوات معدودة تحوّل هذا المصبّ الوحشيّ إلى ميناء يخوت، رحبة من مياه خضراء تحيطها بيوت وأشجار، شيء يشبه وادياً بحرياً. حاولت تخيّل الانطباع الذي يمكن لهذا المشهد أن يولّده لدى

(*) بالإنكليزية في الأصل. مكان يشتري فيه الناس مشروبات الحليب، والمثلّجات، والصحف، والوجبات السريعة... [المترجم]

فتيَين يجذّفان بين ركائز الجسر تحت الهدير المتواتر للسيارات التي تقطع الجسر بسرعة ستّين كيلومتراً في الساعة، وعلى علوّ خمسةٍ وثلاثين متراً. لقد أخذ هذا المشهد منحىً مدنيّاً نهائياً، متجذّراً وثابتاً كما لو كان سدّاً. لم أعد قطّ مرّة أخرى إلى هذا الجسر.

إن حاولت استحضار «سانت مارين» طفولتي، فإنّ أول ما سيتراءى لي هو الشارع الطويل الرملي، الذي يبدأ من مدخل القرية بالقرب من المدرسة وينتهي عند الرأس البحري، وتصطفّ على جانبيه المنازل. يمكن لهذا أن يبدو أمراً مألوفاً، ولكن هذه المساكن كانت عبارة عن خليط، أعني أنها كانت هجينة، عبارة عن تعاقب لمنازل بروتانية أغلبها فقيرة، مبنيّة من حجارة ومكسوّة بالإسمنت، درفات نوافذها ريفية الطابع، أبوابها خفيضة، تسبقها عتبات أحياناً، أسطحها من صخر الأردواز تتخلّلها الدعائم والمداخن القرميدية. المنازل الأخرى فقيرة وقديمة جدّاً ما زالت تحتفظ بجدرانها الغرانيتية، نوافذها ضيّقة، أسقفها مصنوعة من القشّ، تخفي خلفها حدائق صغيرة مزروعة بالثوم والبصل والفاصولياء والبطاطا. في وسط هذا المشهد، تنتصب ڤيلّات الباريسيّين المتأنّقة والمتكبّرة، بحدائقها الكبيرة المطلّة على نهر «أوديه»، تحيطها أسوار حجرية عالية لا تتيح إلا رؤية الأسقف الهرمية، والأبراج، والبوّابات الثقيلة المصنوعة من الحديد المطاوع المطلي بالأخضر الغامق، التي تنفتح على ممرّات من البحص الأبيض، مع أحواض زهور ضخمة من الكوبية والكاميليا.

ما كان يجعل من «سانت مارين» قرية مميّزة هو خلوّها من المحالّ التجارية، وما من شكّ في أن ذلك كان طبيعياً وليس نابعاً من شغف أهلها

بالترف (هل هناك في أيامنا ترف أكبر من السكن في شارع لا يحوي محالّ تجارية؟)، وذلك لأن كلّ منزل من هذه المنازل المتواضعة كان مكاناً يمكن التزوّد منه، حسب الحال، بالسمك والقريدس والسلطعون أو، بكلّ بساطة، بخضار زُرعت في الحديقة الخلفية. الحانوت الوحيد الجدير بهذا الاسم هو متجر كان يباع فيه كلّ شيء، تعود ملكيته إلى عائلة «بيجر» (من بولوبريس). كان دخول المتجر سهلاً، إذ يكفي دفع الباب الأمامي المزوّد بجرس وشراء ما توافر: كونسروة (الحليب المركّز والسردين المعلّب، والبازلاء)، النبيذ الذي كان يباع باللتر (نبيذ جزائري يحمل هذا الاسم الغريب «الله الله»، الأمر الذي كان لا يصدم أحداً في ذلك الزمن)، الخضار الجافّة وأشياء أخرى لا يمكن الاستغناء عنها كالمناديل الورقية وأعواد الثقاب والسجائر، وبالأخصّ وأكثر ما يثير الدهشة، مربّى هلامي يباع بالكيل لم أنسَ طعمه حتى وإن لم أكن قادراً على القول ما إن كان مصنوعاً من التفاح أو العنب أو السفرجل. حانوت «بيجر» كان المخزن الوحيد الذي يمكن شراء الخبز منه، وهو خبز صناعي يُخبز في «كامبير»، قاسٍ وجافّ لدرجة أنّ الأطفال كانوا يستخدمونه ككرسيّ صغير يجلسون عليه في طريق عودتهم إلى المنزل. كان والداي نادراً ما يشتريان هذا الخبز، فقد ارتأيا أن الفطائر التقليدية أكثر صحّية من الخبز المصنوع من الطحين الأبيض.

إحدى نقاط التجمّع المهمّة في «سانت مارين»، والتي لا تبعد كثيراً عن منزل «بيجر»، كانت مضخّة مياه القرية التي توفّر مياه الشفة للسكّان. كان لكلّ منزل ومزرعة بئر خاصّة بهم أو خزّان لتجميع مياه الأمطار في وسط الأرض، ولكن وجود حفر الصرف الصحي وماء القمامة على

مقربة جعل من استهلاك هذه المياه خطراً على الصحة. مياه المزاريب أيضاً كانت تُستخدم لملء الأحواض، ولكن أسقف المنازل المشبعة برذاذ البحر كانت تسيل منها مياهٌ ضاربة إلى الملوحة يمكن استخدامها في الاستحمام وغسل الثياب فقط. أضف إلى ذلك أنه كان قد بدأ العمل في الحقول المحيطة بالمضادّات الكيماوية للحدّ من انتشار الحشرات الضارة وخصوصاً خنفساء البطاطا التي سأتحدّث عنها لاحقاً. على الرغم من أن مزارع تربية الدواجن والخنازير لم تكن بالحجم التي هي عليه الآن -في بعض الأماكن تجد مزارع تحوي مئتي ألف دجاجة- إلا أن مخلّفاتها كانت قد بدأت ترفع من مستوى النترات في التربة. لم نكن قد وصلنا إلى درجات التلوّث الحالية ولكن اقتربنا منها. كما أنه في ذلك الوقت لم تكن المياه تُباع معلّبة إلا ربما للأطفال الرضّع وللرعاع الذين يأتون لقضاء عطلهم حاملين شحنات كبيرة منها. لم يكن هنالك من مصفاة أو تعليمات رسمية معلّقة فوق المضخّة.

لقد كانت هذه المضخّة اليدوية على قارعة الطريق إذاً مصدر مياه الشرب الوحيد، تأتي مياهها من بئر عميق بقي نسبياً بمنأى عن التلوّث. كانت مهمّتنا، نحن أطفال القرية، الذهاب مرّتين يومياً لجلب المياه من المضخّة. حينما عدت لزيارة «سانت مارين» بعد عشر سنوات، وجدت أن المضخّة ما زالت قائمة في مكانها ولكنّها مقفلة، خارجة عن الخدمة، مطليّة بلون أخضر تفّاحي. لقد باتت عنصراً تزيينيّاً، تميمة من زمنٍ ولّى لمن يحبّون الوقوف على الأطلال، مثلها في ذلك مثل تروس شدّ سلاسل العبّارة أو علامات تحديد المسافة، تزيّنها باقاتٌ من الزهور كما تُزيّن عربات اليد في الحدائق.

في طفولتي كانت المضخّة ما زالت في الخدمة، ومثل أيّ شيء ذي فائدة لم يكن لها لونٌ مميّز، كانت رمادية داكنة من لون الحديد المصبوب المصنوعة منه، تشوبها هنا وهناك بقع صدأ، يحيط الشحم بموضع المكبس، ذراعها لمّاع من كثرة الأيادي التي استخدمته. تصدر صريراً عند استخدامها وتستغرق وقتاً قبل أن تقذف بخيط نحيل متقطّع من المياه الباردة لتملأ الدلو ببطء شديد. حين يمتلئ الدلو تماماً -كانت الدلاء مصنوعة إمّا من الزنك وإمّا من معدن مطليّ بالمينا الأزرق بسعات تتراوح بين خمسة ليترات وستّة- يجب العودة به إلى المنزل. كنا نمشي ببطء ونتوقّف كثيراً، نمدّ أذرعنا لتجنّب ارتجاج الدلو، ننقله من يدٍ إلى أخرى لنهدّئ من تشنّج أوتار المعصم والمرفق. المسافة بين المضخّة و«كير هويل» (منزل العطلات الذي كان والداي يستأجرانه من السيّدة هيلياس) لم تكن تتجاوز كيلومتراً واحداً، ولكن القليل من التنقّلات بدت لي بهذا الطول! كان والدي يغلي هذه المياه الثمينة على موقد غاز في حلّة مطليّة بالمينا لم تكن تُستخدم سوى لهذا الغرض. يخفض البخر مؤونة المياه المتوفّرة ويعجّل في موعد الرحلة التالية إلى المضخّة. يقال دوماً إن سخرة جلب المياه هي نشاطٌ مسلٍّ لأطفال القرية، وإن صراخ الأولاد وضحكات الفتيات تصدح دوماً بالقرب من نقاط المياه، ولكن ذلك لا يتطابق تماماً مع ما تختزنه ذاكرتي من صور. ما أذكره هو ذلك الطريق الذي لا نهاية له بين المنازل تحت الشمس، ورتل الأطفال حاملي الدلاء المنحنين جنباً لمعادلة وزن حمولتهم، وتلاطم المياه الثمينة وانسكابها من الدلاء بفعل الاهتزاز. يمكن القول إنه، في نهاية الأمر، كان ذلك نشاطاً ممتعاً بالنسبة للأطفال، لأنه يمنحهم، بحسب ظنّي، الشعور بأنهم يفعلون شيئاً مفيداً.

بالطبع أصبح بالإمكان اليوم، في المطبخ أو الحمّام، فتح صنبور المياه ومشاهدة الماء ينساب، ولكني إلى اليوم لا أستطيع منع نفسي من التأكّد من أنّ الصنابير مغلقة بإحكام خوفاً من أن تضيع قطرة واحدة من هذا السائل الثمين.

أطفال «سانت مارين» (الذين كنّا جزءاً منهم)، كانوا بمجملهم أبناء وبنات الصيّادين الذين يسكنون القرية. كان هنالك بعض الغرباء ممّن يسكنون المنازل الفارهة على ضفاف نهر «أوديه»، ولكننا ما كنا نراهم إلا في الكنيسة أيام القداديس. هؤلاء الغرباء، كانوا يبدون مثيرين للفضول بالنسبة لنا، فهم مختلفون جدّاً عن الأطفال البروتانيّين. كنا نتلصّص عليهم من خلال الأسوار أو عبر تسلّق البوّابات، فكنّا نرى مجموعاتٍ من صبيانٍ وبنات حسني الهندام يلعبون «طاق طاق طاقية» والكركيت، وهي ألعاب كانت تبدو لنا طفولية ولكن مسلّية بالنسبة لهم. المنزل الذي كان يجذبني بشدّة هو منزل الفتيات من جهة «موغيه»، الواقع على الطريق المؤدّي إلى الرأس، في قلب حديقة من أشجار مهيبة على ضفة نهر «أوديه». كانت ڤيلّا كبيرة بعدّة طوابق، سطحها هرمي من الأردواز، لها روزنات، وأبراج صغيرة، وبوّابة من الحديد المطاوع الملوي فنّياً كنت أتسلّقها لأشاهد الحديقة –التي لم تكن مزروعة بالبصل وأشجار التفاح، بل حديقة فعلية كبيرة فيها ممرّات مفروشة بالبحص تصطفّ على جانبيها أحواض زهورٍ ضخمة– ويتلألأ النهر من خلال أيكة أشجار الصنوبر خلف المنزل. ولكن ما كان يجذبني فعلاً لم تكن الحديقة، على الرغم من تمتّعها بسحرٍ خاصّ وجلال مختلف عن باقي القرية، بقدر ما كان

وجود الفتيات فيها. خمس فتياتٍ أو ستّ علمت بأنهن بنات أحد أشهر الشخصيات العامة في ذلك الوقت، رئيس كشّاف فرنسا. ولكي تكتمل الأسطورة والغموض، وربما الإغاظة، كنّ جميعهن ممشوقات القامة، نحيلات وشقراوات، أكبرهن عمراً في الثامنة عشرة وأصغرهن ثمانية أعوام أو تسعة. كنت أراقبهن عبر التواءات حديد البوّابة، أتابع ألعابهنّ وعَدوَهنّ في الحديقة، أنصت إلى أصواتهنّ العذبة مشدوهاً بتفاصيل أثوابهن فاتحة اللون وقبّعاتهنّ القشّية وأوشحتهن وصنادلهن كما لو كنّ ينتمين إلى عالم الأحلام. لم أشاهد ما يشبه ذلك مرّة أخرى إلا بعد زمن، في السينما، في فيلم «الفراولة البرّيّة» لبيرغمان، ولكن الذكرى التي استرقتها من خلال التواءات حديد البوّابة تلك لديها من الوقع على النفس ما يتجاوز الانطباعات التي تتركها الأفلام.

كنا نلتقي بأطفال القرية على الرصيف البحري، حيث نجدهم جالسين على الجدران الخفيضة يشاهدون حركة الشاحنات والمشاة وهم يصعدون على سطح العبّارة ويصْفقون قطعة المعدن الثقيلة التي كانت تشكّل باب العبّارة. أحياناً أخرى، كنّا نجتمع وإياهم على منصّات الرصيف فنقفز من قاربٍ إلى آخر. كان ذلك مكان اللقاء المعتاد. كانوا ينادون بعضهم بعضاً بالبروتانية ويتمازحون بها. كنا نحن باريسيّين بالنسبة لهم، الأمر الذي جعلنا مدعاةً للتنمّر، ولكننا كنا هنا أقلّ عرضة للسخرية مما كنا عليه في الجنوب. ربما لأننا، رغم كل شيء، نشبههم وقادرين على الردّ عليهم ببضع كلمات بلغتهم. هذا الجيل من آخر الأجيال التي نشأت وهي تتكلّم البروتانية. وبما أنّهم ممنوعون من التكلّم باللهجات المحلّيّة –هكذا كانت

تسمّى اللغة البروتانية في ذلك الزمن– فإنّ فصل الصيف كان يشكّل بالنسبة لهم فرصة للاحتفاء بهذه اللغة، فهي لغة اللعب خارجاً، لغة الصراخ، والحلفان، والسباب. اللغة الأخرى، لغة الباريسيّين، لديهم أشهر الصيف الثلاثة لنسيانها، لتركها وحيدة في إحدى الزوايا، في الحقيبة المدرسية مع الكتب والدفاتر المستعملة. كانوا جميعهم يتكلّمون البروتانية مثلهم في ذلك مثل آبائهم وأجدادهم. ولكن مع تقدّمهم في العمر، لم يعودوا يستخدمونها، ليس لأنهم نسوها بل لأنها لغة الطفولة، لغة الماضي، حين كانوا في غير حاجة لأن يكسبوا رزقهم ويكملوا دراستهم.

أتذكّرهم جميعاً: «يانيك»، «ميكيل»، «بييريك»، «إيفيك»، «باوب»، «إيروان»، «فانش»، «سويزيك»، أتذكّر ألقابهم ولكناتهم وحركاتهم كما لو أنّهم الأخيرون في سلالتهم، وُلدوا في عالم آخر ولكن تحوّلوا اليوم وأصبحوا أطباء ومحامين، بحّارة وتجّاراً، رؤساء موانئ أو قباطنة. الفتيات أصبحن ربّات أُسر أو جدّات قرّرن في لحظة معيّنة من حياتهن التوقّف عن التكلّم بلغتهنّ ليصبحن فرنسيّات.

لماذا؟ لماذا لم يقاوموا؟ لماذا ظنّوا بأن اللغة البروتانية تضعهم في مرتبة دنيا؟ أولئك الذين كانوا من جيلنا (الصبيان والبنات الذين كنا نلعب ونتفاعل معهم بالبروتانية) يذكرون أنهم في المدرسة كانوا عرضةً للعقاب إن استخدموا هذه اللغة. كانت تلك توجيهات وزارة التربية الوطنية، التي تُطبّق من قبل معلّمين يتكلّمون هم أيضاً البروتانية. الفرنسية هي لغة الجمهورية الرسمية. وهذا الأمر لم يتغيّر البتّة، ففي تصريحات أخيرة أكّدت الحكومة عداوتها للّغات المناطقية كالكورسيكية والألزاسية والأوكسيتانية (اللغة الكريولية وهي أكثر لغة مناطقية محكية لم تكن

مذكورة في لائحة المبادئ العامة الجديدة). مثل هذه الإرشادات أجبرت في الماضي كهنة بروتاني الجنوبية على التخلّي عن اللغة البروتانية في الشعائر والعِظات. في الستينيات، ونتيجة تقدّم الكهنة القدامى بالعمر -مثل الكاهن الذي كان يقدّس في «سانت مارين» و«كومبري»، والذي كنّا نرتّل في خورسه- حلَّ محلّهم كهنة أكثر شباباً يلبسون الأخضر ويحتفلون بالقداديس باللغة الفرنسية. بالطبع فإنّ هؤلاء أفضل، من وجهة نظر زخرفية، من الأب المتقدّم في السن والذي يعاني من رشحٍ مزمن يجبره على إيقاف عظاته لتناول منديله والتمخّط فيه بصوتٍ عالٍ.

على الرغم من ذلك، كلّ ما سبق لم تكن سوى الأعراض التي تمخّض التغيير عنها وليست أسبابه. في الحقيقة، من يتحمّل مسؤولية هجر اللغة البروتانية هم البروتانيّون أنفسهم. ما حدث في ذلك الزمن يشبه ريحاً قوية عصفت ببروتاني، قلبت كيان مؤسّساتها، خلطت بين النحو إلى الحداثة والخجل من الأصول، وماهت بين التمسّك بإرث الأجداد والتخلّف، وبثّت الخوف من الفقر المدقع الذي يعيش فيه الريفيّون منذ قرون، والذي أخذت الدولة تغذّيه خوفاً من صعود المطالب الهوياتيّة. (الأمر الذي يفسّر استقرار الرسّام «غوغان» في «بون آفين» حيث لم يختلف تصويره للبروتانيّين وللبروتانيّات عن الطريقة التي صوّر بها التاهيتيّين بعد خمس سنوات).

الجيل الذي تخلّى عن لغته الأم (تلك اللغة التي كان الناس يتكلّمونها في بروتاني الجنوبية ويكبرون وهم يتكلّمونها) هو الجيل الذي دُفع به إلى الصفوف الأولى في النزاعات، وخصوصاً في الحملة الكولونيالية

الأخيرة التي فُرضت على الريفيّين، أي حرب الجزائر. كانوا بحاجة إلى أناس جلفين لتنفيذ الأعمال الدنيئة، كالإعدامات الميدانية بحقّ السجناء الجزائريّين، التي كان يُطلب من الألزاسيين والبروتانيين تنفيذها.

من بين كلّ التغيّرات التي طرأت على المنطقة، يبقى هذا التغيير بلا أدنى شك هو الأكثر إثارة للذهول بالنسبة لي. التحسينات التقنية، دمج الأراضي، اختفاء المنحدرات والطرق المنخفضة، المثاقفة، فقدان العلامات المميّزة للأقليات الثقافية (وهي تمثّل أكبر المجموعات في هذه المنطقة) كاللباس التقليدي وأغطية الرأس وأساليب الحياة والأعياد والولائم، كل هذا كان طبيعياً، حتى إني لم ألاحظه حقّاً. ولكن خلال فترة لا ترقى حتى لجيل بل لعشرة أعوام فقط (من وقت ما كنت في الخامسة عشرة وحتى الخامسة والعشرين) توقّفت ألحان اللغة البروتانية عن الصدح في كلّ الأرجاء التي كنت أسمعها فيها سابقاً، في أفواه الأطفال، في الساحات العامة، على مراكب الصيّادين، في الكنيسة، في المقهى، في الأسواق. كان شيئاً غير قابل للفهم بالنسبة لي، غير قابل للفهم ومثيراً للقلق أيضاً، كما لو أنه جرى، بضربةٍ من عصا سحرية، الاستعاضة عن شعبٍ بآخر. القرى والبيوت والكنائس ما زالت قائمة ولكن شيئاً ما قد فُقد إلى الأبد.

هل أمنح موضوع اللغة اهتماماً مبالغاً به؟ أنا نفسي في النهاية لا أتكلّم البروتانية، والقليل الذي كنت أتقنه في طفولتي تلاشى مع الوقت. تصادف إنشاء مدارس «ديوان» (الأصل في البروتانية) مع إصمات البروتانية القديمة لدى العائلات القروية. ربما ما زال هنالك أمل، فأنا اليوم أستطيع

الاستماع إلى محطّة إذاعية وطنية تبثّ باللغة البروتانية، ولو أنها تعطي الانطباع بأن المتحدّثين فيها يتكلّمون الفرنسية، لأن لفظهم يبتعد إلى حدٍّ كبير عن اللفظ المحلّيّ الملحون القائم على الإدغام، والأحرف المصوّتة الحلقية، وهسهسة الحروف الساكنة التي كنت أسمعها في ما مضى. ظهر مغنّون بروتانيون على الساحة الفنية -ليسوا فقط ورثة الفولكلور البروتاني كالإخوة «مورفان» والأخوات «غواديك»، ولكن، وبالأخص، القادمون الجدد مثل «آلان ستيفل» (النبع في البروتانية) و«دان ار باز» (الكبير) أو فرقة «إرث السلتيك» الذين يدمجون موسيقا الروك مع «كان ها ديسكان» (الغناء والغناء المضاد)- وهذا يحمل الأمل بعدم اندثار اللغة وبأنها تجاوزت وبشكل نهائي رقابة اليعاقبة. تنظيم مهرجانات كبيرة في «كامبير» و«لوريان» يشكّل أيضاً فرصة للاتحاد حول الإرث السلتيكي وتشاركه، حيث يلعب الحنين إلى الماضي دوراً رئيسياً. لا تشبه الموسيقا اللغة تماماً. أستطيع الإحساس برعشاتٍ تنتابني لدى الاستماع إلى ألحان القِرَبْ البروتانية والاسكوتلندية تشبه تلك التي تتملّكني حين يُطلق قارع الأجراس العنان لموسيقاه لتحلّق فوق البراري في بعض المساءات الضبابية. تختلط ذكرياتي بمشاعري وتجعلني أعود لوهلة إلى زمن الطفولة المقتضب والطويل في الوقت نفسه. ولكن يجب عدم نسيان الأذى الكبير الذي سبّبته نظريات «أوليه موردريل» و«روبارز هيمون» الملتبسة خلال الحرب العالمية الثانية، التي دعَوَا فيها إلى التحالف مع ألمانيا النازية لتحقيق استقلال بروتاني. كبيرةً كانت ضريبة الاحتلال الألماني التي دفعها المزارعون البروتانيّون، على الرغم من أنهم لم يكونوا متّفقين تماماً مع هذا التحالف الذي لا يتوافق وطبيعتهم. يجب أيضاً ألّا ننسى أنه نتيجة

لهذا التعاون المشين مع المحتل والذي شابته العنصرية وكراهية الأجانب، أصبحت كلمة «سلتيكي» تبعث على الازدراء بحقّ إيرلندا، البلد السلتيكي المستقل الوحيد في العالم.

على الرصيف، حول العبّارة، هو المكان الذي كان يجتمع فيه الأطفال. كنا نحضر إلى هذا المكان يومياً في أيّ وقت، في بداية فترة بعد الظهر على الأغلب، تماماً بعد تناول الغداء، كما لو كنا عمّالاً نبحث عن عمل. كانت تراودنا فكرة الذهاب في رحلة صيد إلى المصبّ على ظهر أحد المراكب. الكلّ تقريباً، كما كنت أعتقد، هم أبناء وبنات صيّادين. تعلّمنا التجذيف وطرق عقد الحبال العديدة وأساليب الصيد المختلفة. اشترينا من متجر «بيجر» عشرين متراً من خيط صيد يسمى «كاتاجوت» مصنوع من البلاستيك الشفّاف، ورصاصاً، وخطّافات. كنا نستخدم سِدادات الفلين كمعوّمات. كنا نرمي بالخيط ثم نسحبه ببطء، متنبّهين لأقل ارتجاج يصيب الخطّاف. أعتقد بأنه لم يكن هنالك شيء أكثر إثارة بالنسبة لي من هذه اللمسات الخفيفة المفاجئة في نهاية الخيط حين تعضّ الأسماك على الطعم. كانت تلك لعبة، وأكثر من لعبة أيضاً، فلقد كان هنالك كائنٌ حيّ في نهاية الخيط على عمق عشرة أمتار في مياه النهر المعتمة يتجاوب معنا. الاهتزازات الخفيفة التي كنا نشعر بها في أصابعنا كانت تشبه رسالة نتلقّاها أو ارتعاشاً. في أغلب الأحيان، تأكل الأسماك الطعم دون أن تعلق بالخطّاف، وحينئذٍ يجب علينا إعادة تذخيره. الطُّعم الذي كنّا نستعمله عبارة عن دود نستخرجه من أراضٍ غضارية ونضعه في علب كونسروة فارغة. لزمَنا وقتٌ طويل لتعلّم إدخال الخطّاف في الدودة على كامل طولها.

أحياناً يعلق الخيط بأعشاب البحر أو بالصخور، الأمر الذي يضطرّنا إلى ربط خطّاف جديد وعقد الخيط حوله على شكل تخريزة. لقد شاركنا في رحلات الصيد هذه مع الأطفال جميعهم، وبالأخصّ «جان» ابن «ريمون جافري». الفضل يعود له في استخدامنا مركب جدّه، «كادوريه» العجوز، الصيّاد العتيق الذي لم يكن يتكلّم سوى البروتانية، والذي كان يرافقنا أحياناً. الصيد كان يقتصر بالنسبة للجميع على أسماك شعاعية الزعانف دبقة، كنّا نعيد رميها في النهر. ولكن من وقت إلى آخر، كنا نصطاد سمك الأسقمري الأزرق الجميل اللمّاع، والذي يُسمّى بالبروتانية «بروزيل». اليوم لم يعد يُرى أطفال يصطادون في النهر. يمكنك أن تصادف في بعض الأحيان أطفالاً من المصطافين يقفون في المياه على جانب النهر يحملون في أيديهم شبكات صيد قريدس سخيفة.

الرجل الذي كنا معجبين به في ذلك الوقت، دون أن نعرفه حقّ المعرفة حتى، هو «ريمون جافري». الكلّ كانوا يُجمعون على أنه أمهر صيّاد في القرية، لأنه لم يكن يخشى الأحوال الجوية السيّئة، يخرج إلى البحر يومياً لتفقّد أقفاص تربية القريدس والجمبري خاصته. يداه كانتا قاسيتين، بشرة وجهه حمراء تخطّها تجاعيد عميقة. حين لم يكن ريمون يصطاد فإنه يرسم. يرسم لوحات ساذجة لمراكب أو لمناظر طبيعية ينقلها في الغالب عن بطاقات بريدية. كانت زوجته كاثرين تدعونا أحياناً إلى المنزل لتُرينا رسوماته الحديثة. بعد مرور زمن طويل وبعد أن توقّفنا عن المجيء صيفاً إلى «سانت مارين»، علمت من خلال كتاب مثير كتبته «روزلين» ابنة «ريمون جافري» بأن الأخير أمضى شطراً كبيراً من حياته يسافر في البحر

ربّاناً ليخت «لينوت 3» المملوك من «غوين-آييل بولوري»، وبأنه عرف كلّ المحيطات من أميركا حتى تاهيتي. لم يكن يتكلّم عن ذلك لأحد، ولم يكن يتبجّح. حين لم يكن يبحر، كان يعود بكلّ سلاسة إلى حياة الصيد. لقد كان مثال البطولة البسيطة والجديرة لبحّارة ذلك الزمن وصيّاديه، الذين يكسبون عيشهم بكدّهم وعرقهم، مثالاً للعقلية الاستقلالية ولازدراء الصناعة والتجارة. هؤلاء الصيّادون كانوا رموزاً حيّة لذلك الزمن، بعيدين كلّ البعد عن الوقاحة والمطالب غير المجدية، الممثّلين الأخيرين لثقافة منطقة «آرمور» المستقلّة والحقيقية.

ماذا بقي من إرثهم اليوم؟ الحداثة التي نعيش غير متسامحة مع المستقلّين. ما من شكّ في أن كثيرين منهم ما زالوا يعيشون في خليج «موربيهان» أو في «را دو سان»، يركبون البحر ويرمون بشباكهم في وسط الدوّامات والرياح العاتية. لقد باتوا الاستثناء. الزمن الذي أتكلّم عنه، حين كنت في العاشرة، زمنٌ يعيش فيه هذه الحياة كثيرٌ من الرجال في «سانت مارين» و«سان غينوليه» و«لوكتودي» و«غيلفينيك». ذلك زمن الشجاعة وقوة الشخصية، تلك الصفات التي كانت توحّد رجال الساحل جميعهم.

كيف اختفى هذا الزمن؟

خلال وقت قصير (بين الخمسينيات والسبعينيات)، شيءٌ ما انحسر وتلاشى، تاركاً خلفه بضعة آثار، هياكل قوارب خشبية، بقايا شِباك صيد، وعلى الشواطئ، كرات زجاجية كانت تستخدم كمعوّمات.

يكثر الحديث عن أزمة الصيد التي حصلت في الثمانينيات والتي أثّرت على المنطقة الساحلية، عندما قلبت القوانين الأوروبية الموضوعة من قبل التكنوقراطيين كيان الحياة القديم وأسلوبها، عندما اضطرّ الصيّادون

البروتانيّون لهجر مراكبهم والعمل في مصانع الكونسروة، عندما تحوّلت المراسي التي كانت تنبض بالحياة سابقاً إلى مستودعات تخزين. حاول الصيّادون المقاومة، إذ ساروا في مظاهرة اتجهت إلى برلمان بروتاني في «رين» عام 1991، واشتبكوا مع قوّات الشرطة وحفظ النظام التي استُدعيت من باريس، وأحرقوا البرلمان كما حدث إبّان الثورة الفرنسية، ولكن أكثرهم اختفى، والأسماك التي كانت تُصطاد جوراً باستخدام السفن الضخمة اختفت هي أيضاً.

# السيّدة لودور

السيّدة التي ما زلت أحتفظ بذكرى طيّبة عنها هي المُزارِعة التي كنّا نذهب يومياً لجلب الحليب من عندها. كانت تعيش في مزرعة صغيرة تقليدية، جدرانها من الغرانيت وسقفها من القشّ، تقع على أطراف «كيرغراديك»، ليس بعيداً عن البحر. لم أتعرّف قطّ على اسمها ولا على اسم عائلتها قبل الزواج. كانت تُعرف بالسيّدة «لودور» فقط. تتكلّم البروتانية والفرنسية بتلك اللكنة الملحونة الخاصة بمنطقة «بيغودين». أخي الذي اهتمّ باللغات منذ نعومة أظفاره تعلّم بروتانية المنطقة من خلالها، واكتشف في ما بعد أنّ هذه اللهجة قديمة لدرجة أن قليلين كانوا يستطيعون التحدّث بها. ماذا كانت تقول؟ مثل كلّ البروتانيين، كانت مهتمّة بمعرفة حال الطقس وما سيؤول إليه. من خلال الإنصات لها استطعت حفظ الكلمات التالية التي تتحدّث عن المطر والغيوم: «چلاف»، «چلاو»، «چلاويل»، «چلاو ستانك»، «چلاو سيل»، مطر شديد، مطر خفيف، «چلاويه»، «ايلهين»، «ايبيسترين»، رذاذ... التراكيب الجامدة التي تشبه الحكم، «چلاف آرا آباو ديرشينت ديش»: لم يتوقّف المطر منذ ما قبل البارحة. مفرداتها كانت أيضاً غنيّة حينما تتكلّم عن الضباب. «ال لاتار»،

«لوسين»، «ليستن»، «آر كوبيرج»، «برمين آرايو اين نوز»، دخان صاعد من البحر يتجاوز قمم أشجار الصنوبر...

جلب الحليب من عند السيّدة «لودور» كان حجّة. حليبها أفضل بالطبع من ذلك الذي يباع بالزقّ في متجر «بيجر»، والذي كان الجميع يعلمون بأنه مخلوط بالماء. كنا نستطيب الذهاب كلّ مساء، قبل حلول الليل، عبر البراح إلى ذلك المنزل الصغير المعزول وسط أزهار الجولق، المستند على الكثبان الشاطئية، والذي يشبه منازل الجنّيات. كنا نشمّ رائحة البقر الدافئة حتى قبل أن ندخل الغرفة الكبيرة - شتاءً، كانت في حائط المنزل طاقة تسمح بعبور حرارة الحظيرة إلى داخل المنزل. كنّا ندخل فاتحين أعيننا بشدّة لعدم وجود مصباح، بل سراج زيت تشعله في المساء. كان للأشياء لمعانٌ غريب في هذه العتمة: الطاولة الخشبية الثقيلة، الكراسي المنخفضة بلا مساند، الأواني، وبالقرب من الموقد في صدر الغرفة، السريرين المغلقين المثبّتين على الحائط بمسامير نحاسية، أحدهما مخصص للسيّدة «لودور» وزوجها، والآخر لابنتيهما بالتبنّي. أرض المنزل ترابية، تبرز في السقف العوارض الخشبية التي أصبحت سوداء بفعل الدخان، تملأ الفراغ بينها حزم القشّ التي يتألّف منها السطح. بالنسبة لنا نحن الذين قضينا طفولتنا في إفريقيا، في نيجيريا، لم نكن نعتبر ذلك بدائياً، ولكن هنا في بروتاني كان ذلك يضفي سحراً جذّاباً من الزمن البعيد كما لو أنّ المنزل قد خرج من إحدى قصص «بيرو» الخرافية والمصوّرة من قبل «دوريه». «الفقر» ليست الكلمة الملائمة، كان ذلك إحساساً بأنّ هذا المكان خارج الزمن، منسيّ من العالم الحديث. نعم، كما لو أنّ المرء قد دخل عالم القصص المصوّرة.

السيّدة «لودور» امرأة مربوعة، قويّة البنية، ترتدي ملابس سوداء دائماً ومريلة. لم تكن تلبس طقماً البتّة، وعوضاً عن قبّعة الدانتيل اللافتة للنظر كانت تربط كعيكة شعرها بعقدة من المخمل الأسود على الطريقة التقليدية القديمة. كانت تحتذي قبقاباً تتركه عند المدخل وتكتفي بخفّ من اللباد. لم نرَ زوجها يوماً داخل المنزل. لقد كان يعمل في الزراعة ويرتدي دائماً ملابس بالية وحذاءً رثّاً وموحلاً ويضع قبّعة أيرلندية. لقد كان رجلاً أعجف قادراً على العنف بعد أن يشرب. هو لم يكن يتكلّم الفرنسية إطلاقاً. رأيناه عدّة مرّات مستلقياً خارج المنزل ينام نومة السكّير، وكنّا نضطرّ للقفز من فوقه. لم يتوجّه إلينا بالكلام مطلقاً، بل ينظر إلينا بعين الريبة، فلقد كنّا الطفلين الوحيدين الغريبين اللذين يأتيان إلى منزله.

لم تكن عائلة «لودور» ترتاد الكنيسة إطلاقاً. لا بدّ أنهم كانوا شيوعيّين مثل كثيرين في ذلك الوقت. كان ذلك تقليداً ثوريّاً قديماً ورثته المنطقة عن ثورات الجاكية والشوانري. ففي تلك المنطقة في نهاية العصر الوسيط شنق المزارعون كلّ المُلّاك، كما أن ثورة القلنسوات الحمراء في القرن السابع عشر تسبّبت بقمع دموي نفّذته السلطات الملكيّة ضد أهالي «بيجوديني». أتذكّر أن جدّي الموريشيسي المستقرّ في باريس قد تعرّض أثناء قضاء عطلته في المنطقة لتهجُّم من قبل عمّال مرفأ «دوارنانيز»، الذين شتموه وبصقوا عليه. لقد كان طبيباً ورجلاً أنيقاً، فظنّوا أنه واحد من أصحاب العمل.

كان هنالك طفلتان في منزل «لادور»، من عمرينا تقريباً، عشرة أعوام واثني عشر عاماً. الصغيرة بينهما، «جانيت»، نحيلة وسوداء؛ الأخرى، «ماريز»، بنيتها أضخم وأكثر قوة، وجهها حسن وشعرها جميل مصفّف

على شكل كعيكة. كانتا ابنتَي عائلة «لادور» بالتبنّي، عهدت المساعدة الاجتماعية بهما إلى زوج المزارعين. كنا نعود ونلتقيهم كلّ صيف وكان لديّ الانطباع بأنهما لا تتغيّران مطلقاً. كان النضج يبدو عليهما ولم تكونا تشاركان في ألعاب أطفال «سانت مارين» الآخرين، ولكنهما تقبلان أن تتمشّيا معنا. كانتا تتحدّثان الفرنسية بطلاقة إلا عندما تودّان التحدّث دون أن نستطيع فهم موضوع الحديث أو السخرية منّا ضحكاً. لقد كانت تلك علاقة غريبة نوعاً ما، فلقد كانتا معدومتين، فتاتين لقيطتين تعيشان مع عائلة من الفلّاحين. أما نحن، فقد كنا طفلين غريبين، سائحين، باريسيّين يفتقدان إلى النضوج على الأرجح ومدلّلين. أظن أننا كنّا نمثّل بالنسبة لهما كلّ ما ينقصهما: النقود (حتى وإن لم تكن إلا بضعة فرنكات لشراء السكاكر من دكّان السيّدة «هيلياس»)، ثياباً جديدة، ووالدين في المقام الأول، الأمر الذي يشكّل سمة تفوّقنا الأولى عليهما.

لم نكن نلعب معاً، ولم يكن هنالك من أحاديث حقيقية بيننا. بدا ذلك كما لو أنهما قد كبرتا في عالم آخر حيث لا يضحك الأطفال ولا يتسلّون، بل يتعلّمون منذ نعومة أظفارهم أن يعملوا في الحقول والمنازل. أياديهما خشنة من العمل في عزق الأرض وغسل الملابس. كان بإمكاننا تعلّم البروتانية من خلالهما ومن خلال أطفال المرفأ أيضاً، ولكن لا بدّ أنهم قد مُنعوا من التحدّث إلينا بهذه اللغة، وربما طُلب منهم أن يحسّنوا لغتهم الفرنسية ويتعلّموا آداب السلوك عبر التفاعل معنا.

ولكن في ما يخصّ هذه النقطة تحديداً لم نكن خبيرين يُعتمد عليهما. كنا نذهب للسباحة في البحر أيام الطقس الجميل وكانتا لا تخلعان ثيابهما وتبقيان جالستين على رمل الشاطئ تنظران إلينا. من المحتمل أنهما لم

تكونا تعرفان السباحة أو لا تملكان ثياباً خاصة بالسباحة. حين تقتربان من المياه كنا نرشقهما بها. أصبح ذلك لعباً يختلط به الهزل بالخبث. كانت الفتاتان تعدوان في مياه البحر بأرجل حافية ونرشقهما نحن بالمياه الباردة لدفعهما إلى الصراخ. ولكن ذلك لم يكن يثير صراخهما. بل تعودان باتجاهنا، فنرشق المزيد من المياه. أصبح اللعب بعد ذلك أكثر عنفاً وقسوة. شعرت عندئذٍ بإحساس غريب، خليط من المتعة والخجل. تجلس الفتاتان في أعلى الشاطئ بالقرب من كبائن الاستحمام، ونرمي عليهما حفنات من الرمل تغطّي أكتافهما ورأسيهما. لم تكونا تحاولان الهرب، بل تنحنيان وتلفّان أيديهما حول ركبتيهما، وتخفيان وجهيهما بأيديهما لتحميا عيونهما وفميهما.

لا بدّ أنهما كانتا تستمتعان بذلك قليلاً على الرغم من كل شيء، إذ تعودان كلّ سبتٍ وأحد حين تسمح لهما أشغالهما في المزرعة بذلك. كنا نعاود الالتقاء بهما كل صيف. لقد كانتا بالنسبة لنا صديقتين حميمتين قبل الساعة، صديقتين ومَكسرَيْ عصا في آنٍ واحد. لم أعد أذكر تفاصيلهما الجسدية بوضوح. كان لجانيت كتفان نحيلان، وعينان شديدتا الزرقة، وشعرٌ أجعد كشعر الغجريات، أما الطويلة بينهما، ماريز (لم يكن في اسميهما أيّ شيء يدلّ على البرجوازية مثل «آنييس» و«شانتال» و«كامي» المنتشرة لدى عائلات صديقات والدتي في «لوكتودي»، بنات التجّار وأطباء أسنان)، فوجهها كان جميلاً وناعماً، بنيتها ضخمة تدلّ منذ ذلك الوقت على انتمائها للنساء العاملات في الأرض. بعد الشاطئ، كنا نرافق الفتاتين حتى المزرعة حيث تكون السيّدة «لودور» قد أعدّت عصرونية من فطائر الكريب، ليس الكريب الرفيع أو الفطائر المصنوعة من الطحين

الأسود والمحشوّة بأطعمة مالحة كتلك المنتشرة في أيامنا هذه، بل فطائر الحنطة، فطائر «كرامبوزين» الحقيقية، السميكة والثقيلة، المخبوزة دون سكر أو زبدة، والتي تُقدّم مع زبدية من عصير التفاح الدافئ (لا بدّ أن عصير التفاح المجمّد اختراع أميركي). مثل كلّ أطعمة الطفولة (أكلة النيوكى التي كانت تطبخها ماريا خادمة جدّتي، أو الفوفو وحساء المكترات المشهور في «أوغوجا» في نيجيريا)، ما زلت أحتفظ بمذاق هذه الفطائر في فمي، تلك السماكة الحارة وحموضة شراب التفاح في زبدية الفخار، ذلك الطعم الرقيق والوحشي في آنٍ معاً، التي كنا نتناولها في ظلام المزرعة الضبابي مع رائحة البقر وشعاع النهار الداخل من الباب المفتوح، وانعكاس ضوء النبراس من على الأواني في الرفوف، ومن على مسامير الأسرّة مشكّلاً معيّناتٍ وزهوراً، ومع تهكّمات الفتاتين الساذجة التي تنتقمان بها من عنف رشقهما بالمياه وبحفنات الرمل في شعريهما.

# على الدرب[*]

كنا نسلك الدروب المنخفضة بدرّاجاتنا البدائية والثقيلة مثل الدرّاجات بلا دوّاسة التي كنا نستأجرها كلّ صيف من الميكانيكي «كونان» في «كومبريت». هذه الدروب الخفيضة تقطع الحقول والأيكات ويحدّها من على الجانبين جرفان مرتفعان (جرف هو معنى اسم عائلتنا في البروتانية *ar kleuziou*) تغطّيهما السراخس ونبات القندول. أحياناً نشعر بارتجاج الأرض تحت عجلاتنا، فنترك درّاجاتنا ونتسلّق أعلى الجرف، ونفسح المجال لقطيع من أبقار مهرولة مادّةً قرونها إلى الأمام مستعدّة لتدوسنا. لكنها لم تكن بلهاء، فلقد كانت تتحاشى الدوس على درّاجاتنا.

بين «سانت مارين» و«كومبريت» مروراً بـ«بون لابي» كان هنالك شبكة دروب مناسبة للمغامرة عبر أحراج الصنوبر والمراعي. هذه الدروب كانت تصل أيضاً إلى القرى والمزارع المنعزلة. دمج الأراضي لم يكن قد بدأ وقتها، هذا الانقلاب الشامل الذي أدّى إلى صعود كبار المزارعين واندثار صغارهم، والذي حوّل في غضون سنوات معدودات اقتصادات صغيرة

---

(*) بالبروتانية في الأصل: *War an hent*. [م]

منقطعة النفس إلى ما أصبح يُعرف اليوم بالصناعات الزراعية الغذائية. من السهل على السيّاح والمصطافين أن يستهجنوا نهاية هذا العصر، ولكن تلك كانت نهاية البؤس الأسود بالنسبة لكثيرٍ من القرويين. حتى اليوم، ما زال الناس يتحدّثون عن الآبار التي كان المزارعون القديمون يرمون أنفسهم فيها مفضّلين الموت على أن يوضعوا في ملاجئ الفقراء. المزارع الصغيرة المبنيّة من الغرانيت والقشّ تحوّلت إلى منازل صيفية، والأطفال الذين نشؤوا فيها ارتحلوا إلى باريس للعمل في المصانع.

لا! لا ينبغي التحسّر على عصر الفلاحة البروتانية التقليدية ولو أنها ستبقى جرحاً مفتوحاً يذكّر بالأشياء التي لن تعود يوماً: الأسقف القشّيّة المجدولة بجمال فائق، والعوارض الخشبية المنحوتة بالقدّوم، والأخشاب العائمة التي يعاد تصنيعها كشرائح خشبية، التراب الممزوج بدماء الخرفان كي تصبح الأرض قاسية ولمّاعة كالحجر السماقي، المداخن الضخمة، وكلّ الأثاث المدهش القادم من غياهب الزمن، دواليب وأسرّة معلّقة وطاولات ومقاعد وصناديق زواج، والأواني المصنوعة من الصلصال الأسمر المعلّقة بمشابك على خزن المطابخ مفتوحة الرفوف، الحلل التي اتّشحت بسواد الشحّار، والطبّاخ الخاص بالفطائر، والطنجرة الخاصة بعصيدة «يود» المحضّرة من الشوفان، والتي يختص بها كلٌّ من البروتانيّين والاسكوتلنديّين والويلزيّين. المزارع اليوم لا تحوي شيئاً من هذا الإرث. طاولات الخشب المعاكس حلّت محلّ صروح خشب السنديان المصقول -يقال إنه في فترةٍ ما نجح بعض السُّعاة في خلب المزارعين السذّج بالحديث، وإقناعهم بمبادلة قطع جديرة أن تُحفظ في المتاحف مقابل أثاث رديء الصنع- وراحت وسائل الراحة الحديثة تتعمّم. لم يبقَ

سوى بعض الذكريات العنيدة هنا وهناك، كساعةٍ برقّاص، أو ملعقة زواج، أو صندوق خشبي محفور للتذكير بشكل الحياة التي كانت في الماضي.

الدروب الخفيضة تصل حتى ضفاف نهر «أوديه» حيث توجد أحراج تبدو كأنها عذراء تسكنها الخنازير البرّيّة واليحمور الأوروبي والثعالب والأغِرّة. في إحدى نزهاتي التقطت جربوعاً يافعاً وضعته في جيب سترتي. نام الحيوان طوال النهار في علبة من الورق المقوّى وضعته فيها واستيقظ نشطاً ليلاً، وانتهى الأمر به أن وقع من على الطاولة ودُقّ عنقه.

الطريق الوحيدة الحقيقية كانت الطريق العابرة للمحافظة، والتي تصل حتى «بون لابي»، وتتفرّع نحو الطريق القطرية المتّجهة إلى «كامبير». كانت طريقاً ضيّقة في ذلك الزمن تتعرّج بحسب العوائق، لا تخلو من الصعوبات والحفر. لم تكن تسلكها السيارات عدا بضع شاحنات وحافلات تحاول تجنّب الطرق الساحلية. كنّا نترجّل وندفع درّاجاتنا حين تصبح المرتفعات قاسية، ومن ثم ننزل بسرعة المنحدر الواصل إلى «بون لابي» وكنيسة «لامبور». هل ثمّة طفلٌ قادرٌ اليوم على فعل ذلك دون أن يخاطر بحياته؟ أغلب طرق منطقة «بيجودون» أصبحت اليوم طرقاً قطرية تسير عليها المركبات بسرعة مئة كيلومتر في الساعة وتتجاوز بعضها بعضاً كيفما اتفق، بنوعٍ من الغضب الميكانيكي.

لدى وصولنا إلى أسفل المنحدر كنا نبحث عن أول علامة حضرية (أعني بذلك محيط «بون لابي»)، وقد كانت مرأبَ إصلاح سيارات «رينو» قبيحاً، مدهوناً بالأبيض والأحمر، سأجد صعوبةً اليوم في إيجاده في محيط البلدة الذي اجتاحته المباني من مخازن وهنغارات ومراكز تجارية. كل ذلك مكتوب بأحرف ضخمة تحيطها صفوف من لافتات ورايات. ولَد

ذلك لديّ الانطباع أن المدينة بتوسّعها قد انكمشت. من المستحيل الآن رؤية برج الكنيسة المهدّم من فوق الأسطحة. لا بدّ أن هذا أعظم التغييرات التي طرأت على هذه المنطقة من فرنسا، التي كانت أصيلة جدّاً في ما مضى. البراري التي كانت تفصل بين القرى تقلّصت بسبب الأبنية التي أُشيدت عليها، الكلمات والأسماء الدعائية باتت في كلّ مكان كاللافتات الإعلانية الخاصّة بالمتاجر الكبيرة والعلامات الطرقية والطرق الدائرية وإشارات المرور.

أين اختفى المشاة؟ حين كنّا نعبر «بون لابي» على درّاجاتنا كنا نرى الناس يمشون في كلّ الاتجاهات. كانت الشوارع والساحات في القرية تعجّ بالمارّة من شباب وعجزة وأمهات يدفعن بعربات أطفالهن ويافعين مثلنا في مجموعات من خمسة أفراد أو ستة على طول الطرقات والتقاطعات. في كلّ مكان. 

كان هنالك الكثير من الدرّاجات، ليس بالعدد الموجود في الصين بلا شكّ ولكنّا كنّا نراها في كلّ مكان، درّاجات ليست كهربائية ولا صالحة لجميع التضاريس وغير مزوّدة بمحرّك، بل درّاجات عتيقة وثقيلة تفتقر إلى علبة مسنّنات، مدهونة بالأسود اللمّاع ومزوّدة بحامل أمتعة كروميّ اللون، أو بسلالٍ من الجلد الصناعي ورفرف مطّاطي للعجلات ومكابح ذات ساق ودينمو وعاكسات ضوئية. الجميع كانوا يستخدمون الدراجات للتنقّل، الرجال المتقدّمون في السنّ والنساء بأثواب سوداء يعتمرن القلنسوات. كانوا يسيرون على طرفي الشارع حاملين سلالاً من الخضار وقُفّاتٍ وأكياس غسيل. حين تمسي تضاريس الطريق قاسية كانوا يترجّلون ويدفعون درّاجاتهم أو يجلسون على قارعته للتدخين والثرثرة

مُلقين بدرّاجاتهم في العشب، لأن العكّازة لم تكن قد اختُرعت بعد في ذلك الزمن. مانع السرقة أيضاً لم يكن موجوداً، فقد كنا نترك درّاجاتنا أمام المنازل ومداخل الحدائق في «بون لابي» أو «كامبير» مستندةً على الجدران، كما كان يفعل الجميع. لم يكن يخطر على بال أيّ أحد أن يربط درّاجته كما لو أنها حصانٌ أو بقرة. لم نكن نربط الدرّاجات ولا القوارب حتى، تلك التي كنا نسحبها إلى الشاطئ حين يكون المدّ عالياً. من كان ليسرق درّاجة أو قارباً؟ أين كان ليذهب بهما؟ أعتقد أن الناس لم يكونوا يقفلون أبوابهم دوماً، فأنا لا أذكر أنّي حملت مفتاحاً في جيبي يوماً.

# لو كوسكيه

كان هنالك احتفالٌ يُنظَّم كلّ صيف نحو منتصف شهر آب في قصر «كوسكيه». يمكن لذلك أن يبدو أمراً عادياً، ولكن بالنسبة لي كان ذلك احتفالاً لم أشهد مثله في أيّ مكان آخر، كما لو كان في الأحلام. «لوكوسكيه» (المنزل القديم في البروتانية) يقع على الطريق المؤدّية إلى «كومبريت»، وسط مرجٍ تحيطه غابةٌ من أشجار الصنوبر. القصر يشبه إلى حدٍّ كبير قصور حكايا الجنّيات، بناء قروسطي خيالي أبيض من العمارة التي يحبّذها «فيوليه لودوك»، مزيّن بأبراج مدبّبة النهايات وأبراج مسنّنة الحواف ومزخرفة بالجص. الواجهة تحوي العديد من النوافذ والكوّات، وباباً وحيداً يقع في أعلى درج يحدّه درابزين من الحجر المخدّد. كان قصراً مثقلاً بالتكلّف وخيالياً يشبه طيف المنازل الكبيرة التي حرقها في الماضي الرعاع والثوريّون. مالكته، الماركيزة «مورمارت Mortmart»، كانت هي أيضاً تنتمي إلى عصر ولّى، فقد كانت تتحدّر من عائلة أصولها تعود لزمن الحروب الصليبية كما كان يقال (اسمها يذكّر بالبحر المالح المذكور في الكتاب المقدّس ومملكة القدس).

عدا يوم الاحتفال لم يكن بإمكاننا الدخول إلى القصر. كنا نراه من بعيد من خلال جذوع الأشجار كطيفٍ أبيض تظلّله الأحراج. ولكن في ذلك اليوم القائظ من شهر آب، تفتح الماركيزة باب عزبتها سامحةً للصيّادين والمزارعين من جيرانها والسيّاح مثلنا والراهبات بالدخول. يُنظّم على المرج يانصيب خيري وألعاب أطفال ووجبات خفيفة وسباق أكياس ومسابقة مصارعة بروتانية وموسيقا بروتانية تقليدية.

لم تكن الماركيزة تخرج لملاقاة الناس بتاتاً. ربما كانت متقدّمة جدّاً في العمر، ولذلك كانت تفضّل البقاء في داخل قصرها، في الوقت الذي تقام نشاطات الحفل تحت نوافذها. أذكر بشيء من الإبهام أني لمحتها مرة من خلال نافذة الطابق الأول فوق الباب كطيفٍ أبيض هشّ.

لقد كانت محترمة من جميع جيرانها، ويحكى أنها اصطدمت مع الجيش الألماني الذي أراد مصادرة قصرها إبان الحرب لإيواء ضبّاطه. لقد واجهت الضابط، وآثرت أن تترك القصر وأن تسكن لدى قريبة لها في «كامبير» على أن تتشارك القصر مع قوّات الاحتلال. رفضُ العيش مع المنتصرين هو العمل البطولي الوحيد الذي كان بإمكان امرأة متقدّمة في السن فعله، وأهالي «كومبريت» يقدّرون لها ذلك.

لا شيء كان يمكن له أن يشغلنا عن الذهاب إلى الاحتفال الصيفي هذا. أحياناً كانت عواصف شهر آب الرعدية تنهي الحفل باكراً في المساء. رائحة قشّ الحقول المحيطة المحصودة والجوّ الحار كانت تسكرنا وتحملنا إلى عوالم أخرى من الأحاسيس. كنا نعدو مع الصِّبية الآخرين في القشّ الخادش كي نثير أسراب الناموس. سيارات السيتروين باستطاعة

حصانين الخاصة بالراهبات (فيلم «دوفينيس» لم يقدّم أي شيء جديد في هذا المجال) كانت تسير عبر الحقول. يتجمّع الرجال لمشاهدة مسابقات المصارعة وألعاب الألواح في جوٍّ من موسيقا تعزفها فرقة نحاسيات دون مكبّرات صوت، تتمازج معها أصوات القِرب والمزامير الحادة. يُحتفل بالقدّاس الإلهي عند الظهيرة في الهواء الطلق كنوع من طلب الغفران. ولكن كاهن مدينة «كومبريت» العجوز لم يكن يترأسه، بل أبٌ شابّ يقوله بالفرنسية، في حين يردّد المؤمنون التراتيل التي بعضها بالبروتانية كترتيلة القديسة آنا (*Itron Santez Anna*). جُهّزت في فترة بعد الظهر مائدة من اللحوم الباردة والفطائر المحلّاة وعاودت الاحتفالات والمسابقات والألعاب. نُظّمت مساءً حفلة راقصة ولكنّا قبل ذلك كنا قد غادرنا على درّاجاتنا.

في خضمّ كلّ ذلك، كان هنالك حضور الماركيزة الخفيّ، الماركيزة التي تبقى في غرفتها تستمع إلى أصوات الحفل. نأخذ بالنظر نحو نافذتها كما لو أنها ستظهر بهيئتها الهشّة والقديمة لتبتسم لنا.

أما زال أحدٌ يذكر؟ أردت رؤية «الوكوسكيه» من جديد بعد مرور عشرين عاماً. اختفى هذا القصر الخرافي ولم يبقَ منه سوى مزرعة قديمة من الغرانيت، صغيرة ومتواضعة تتكئ على الغابة. توفّيت الماركيزة منذ زمن طويل وأراد ورثتها التخلّص من هذا البناء الأبيض المكلف. أحد الورثة قال لي بنوع من التعجرف: «ماذا؟ أتتحسّر على دكّان الحلويات هذا؟!». الطريق الجديدة هضمت قسماً من الغابة، الفضاء الذي كان يسحر الأطفال بدا لي قد تقلّص ولم يبقَ منه سوى مرج هنا وأيكات صنوبر هناك. لا يمكن للسراب أن يقاوم نظرة سائقي السيارات.

«سانت مارين» هي رائحة الماء (كلمة «*hyangsu*» تعني الحنين باللغة الكورية). على سطح العبّارة، في البداية، وعلى طول الأرصفة، تنبعث رائحة لاذعة حامضة كرائحة تفسّخ الخضراوات والمازوت. المياه داكنة اللون عند المدّ العالي، وشفّافة أو شبه صفراء عندما ينحسر وتصبح ضحلة. لا أذكر سوى بضع كلمات بروتانية كان الفتيان يستخدمونها في الصيد: *a-paolev* إلى المجذاف، *krog eo* لرمي خيط السنّارة، *higenn* وتعني الخطّاف، *bouhed* الغذاء، وتعني الطُّعم، *a-treant* حين يجب طعن رأس السمكة بالسكّين، ولكن الكلمات، الفرنسية أو البروتانية، لا يمكنها أن تعبّر عن إحساس الانجراف بتيار النهر، وتمايل المركب بفعل الأمواج وانعكاس ضوء الشمس وصوت تلاطم الأمواج. مياه النهر، المياه المتسرّبة إلى داخل القارب والتي كان يجب إخراجها باستخدام علبة كونسروة وحتى لو كانت تمطر رذاذاً كغبار يبلّل ثيابنا، كلّ هذه المياه التي كانت تنقلنا كما لو في الأحلام، *ster ar sorenn*، نهر الأحلام، لعبور الزمن.

# الحصاد

عليّ أن أتحدّث عن الحرارة أيضاً.

في شهر آب («ميز أوست» في البروتانية وتعني موسم الحصاد) تكون أرض الطريق الذاهبة إلى الشاطئ قاسية وحارقة تحت أرجلنا الحافية. كنّا قد عشنا في السابق في نيجيريا حيث الشمس تشقّق البصرة (تربة اللاتيريت) وتشوي الأواني الطينية التي كنّا نصنعها ونتركها لتجفّ تحت حرارة الشمس. كانت كثبان الرمل في بروتاني تعجّ ببذور النباتات الشائكة، ولكنّا مع ذلك كنّا نرمي بأنفسنا ونستلقي عليها لمشاهدة الغيوم.

يشكّل الحصاد في منتصف الصيف حدثاً أساسياً في حياة القرويّين. لم يطرأ أيُّ تغيير على ذلك اليوم. إذ تكفي مشاهدة الطرق الريفية التي تعجّ بآلات الحصاد العملاقة ذات العجلات الكبيرة كعجلات الطائرات، المزوّدة بأنصال وأمشاط وكواشط تحصد وتدرس القمح، وتترك خلفها، في الحقول العارية، أكوام قشٍّ مغلّفة بالبلاستيك الأخضر أو الزهري، مشكّلةً بذلك لوحاتٍ سريالية. في «سانت مارين»، في ذلك الزمن، لم

يكن يُستخدم المنجل في الحصاد وما زالت هذه هي الحال في الجبال بالقرب من «روكبيلير». ظهرت الحصّادات الآلية، في الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر، وبعدها بقليل في أوروبا. حلّت المكننة محلّ طرق الزراعة التقليدية المتوارثة، إذ أصبح استخدام الأحصنة والمحراث الذي تجرّه ثيران شيئاً من الماضي. في «سانت مارين»، يُنجَز الحصاد في يوم واحد باستخدام حصّادات مستأجرة للعمل في الحقول حول قرية «كومبريت». تُدرس السنابل في المزارع الكبيرة كتلك العائدة لعائلة «كوسيك» في حيّ «كيرغارديك». القول بأنّ هذا الحدث كان احتفالاً لا يفيه حقّه، لقد كان ذلك حدثاً هامّاً وامتحاناً وحتى معركة، إذ يجب الانتهاء من العملية كلّها في غضون يومٍ واحد خوفاً من تهديد الأمطار التي يمكن لها أن تخمّر الحبوب. السنابل المحصودة في الحقول المحيطة والتي تعود ملكيّتها لعائلات عدّة كانت تُنقل بشاحنات قلّابة حتى المزرعة. هناك، في وسط الفسحة، تُنصب الدرّاسة كشيء يشبه صرحاً مصنوعاً من خشب وحديد موصول بمحرّك بواسطة قشاط مصنوع من الجلد. كان ذلك بدائياً وألمعياً في آنٍ معاً. بدائيّ لكبر حجم الآلة؛ وحداثي لأن الآلة كلّها كانت تعتمد على المحرّك.

كيف كنا نعلم بأن الدِّراس على وشك الحصول؟ كما كانت هي الحال بالنسبة للاحتفال الذي تستضيفه الماركيزة، حدسنا يُنبئنا به. كان ذلك يحصل كلّ صيف، وما من شيء في العالم كان ليشغلنا عن متابعته. ما من شكّ بأن هدير المحرّكات التي تجوب الحقول علامة على بدء الحصاد. في ذلك الزمن (كما هي الحال اليوم في منطقة «لي كوت دارمور») كانت حقول القمح تمتدّ حتّى خطّ الكثبان الرملية أمام البحر. كانت حمّى

الحصاد تتملّك الجميع، حتى السيّاح مثلنا. في يوم الأحد الذي يسبق الحصاد، يضيف كاهن رعيّة «كومبريت» العجوز إلى عِظته بضع جمل بالبروتانية، لحثّ المؤمنين على الصلاة طلباً لطقس مناسب. كان جميع أهالي القرية يتحدّثون عن الحصاد، والجميع ينتظرونه بغضّ النظر عمّا إن كانوا مزارعين أو صيّادين أو تجّاراً، شيباً أو شباباً. الجميع ينتظرون يوم الحصاد.

يبدأ الحصاد في الصباح الباكر مع حركة الجرّارات ذهاباً وإياباً جارّةً خلفها القلّابات المملوءة بالسنابل. قبل الظهيرة بقليل، يُشغَّل محرّك الدرّاسة. الصور التي توثّق الدِّراس التقليدي من ذلك العصر لا تتطابق تماماً مع ما تختزنه ذاكرتي عنه. تبدو لي بعيدة وفلكلورية. لم يكن ثمّة عمّالٌ بالمعنى التقليدي للكلمة، ولا تلك الطاقة الشعبية الجمعيّة. مردّ ذلك ربما أننا كنّا أطفالاً (وككلّ الأطفال كنا مشدوهين بالألعاب الميكانيكية) فقد كانت الدرّاسة تبدو لنا عظيمة وقوية، تبعث على الرهبة تقريباً. كانت عبارة عن برج يستند إلى ركائز مثبتة في أرض الفسحة بقطع صخرية كبيرة، يخرج منها بساط مسنّن مهمّته حمل السنابل إلى داخل الآلة. ضجيج المحرّك ورائحة الشحم واهتزازات البرج وحركة البساط المتقطّعة، كلّ هذا يجعل من هذا المشهد مشهداً سحرياً. كان الرجال منشغلين حول الآلة يحملون السنابل بالمذراة، وآخرون في أعلى البرج يدفعون بالسنابل داخل أسنان الآلة، ليخرج القمح من أسفلها حيث يمدّه العمّال باستخدام مجرفة. يخرج القشّ من الجانب الآخر ويُكوّم ويُحزم. لقد كان ذلك صاخباً وعنيفاً وكانت تنبعث من وسط الفسحة غيمة من الغبار تغطّي الأرض والأسطحة والثياب وتخرّش العيون وتدفع على

السعال. أغلب العمّال كانوا يعتمرون قبّعات، وبعضهم يربطون مناديل تغطّي أفواههم مثل رعاة البقر. الضوضاء والهيجان ورائحة غبار القمح الحادّة ما زالت في ذاكرتي. لقد كنّا أولاداً مدينيّين قدموا من الجنوب، طلّاب ثانوي في عطلة، ولكن لم يكن باستطاعتنا أن ننتشل أنفسنا من هذه الحمّى، حمّى انتصار العالم القروي. لقد كنا نشعر بشيء، شيء لا يمكن لدروس الجغرافيا والتاريخ أن تعلّمنا إيّاه، شيء يربطنا بتاريخنا القديم (قبل هجرتها إلى جزيرة موريشيوس، كانت عائلتنا تعمل في الزراعة)، ويربطنا بتاريخ الإنسانية جمعاء. كانت احتفالية الحصاد تدوم حتى المساء وتمتد حتى منتصف الليل. أذكر أني خرجت من «كير هول» ومشيت باتجاه المزرعة، لأرى الأنوار التي كانت ما تزال تأتي من وسط الفسحة، مضيئةً غيمة الغبار، ولأستمع إلى تنحنح المحرّك الذي يدير قشاط الآلة. عدت إلى «كير هول» رغماً عني ولم أنم تلك الليلة، فقد كانت صورة اهتزاز هذه الآلة العملاقة وهي تلتهم سنابل القمح لا تفارق مخيّلتي.

# التجوّل ليلاً

في مثل ليالي الصيف الهادئة هذه، التي تعجّ سماؤها بالنجوم، أجد صعوبة في الخلود للنوم. أشعر وكأنّ أعصابي كلّها باتت حبالاً متوتّرة. لذلك كنت أنهض من سريري من دون جلبة، وأعبر إلى الخارج من خلال نافذة الطابق الأرضي حتى لا أوقظ جدّتي التي كانت تعسكر في غرفة السفرة. في الخارج، يخطّ القمر بضيائه الأبيض الطريق الواصلة إلى الكثبان الرملية. تعصف الريح متقطّعة. كان يصلني، من خلال حفيف أشجار الصنوبر، همسٌ خفيف بعيد ومستمرّ كهدير محرّك سيارة، ولكنّه كان صوتاً ينبض بالحياة، منتظم كالتنفّس، يندمج مع نفسي ونبضات قلبي في شرايين رقبتي.

لا أشعر بالخوف. أظنّ أني لست خائفاً. بعد تجاوز آخر البيوت المتطرّفة تظهر بساتين التفاح من جهة الشاطئ. إلى اليسار هنالك درب الجمارك الذي يؤدّي إلى الأراضي الجرداء ويسير بمحاذاة المحيط وصولاً إلى الرأس. كنا نسلك هذا الطريق دوماً في النهار بحثاً عن بقع المياه التي يخلّفها انحسار المدّ العالي. كنا نصطاد فيها البرنقيل والقريدس ونقوم بطهيها على الشاطئ. ليلاً، لا يمكن معرفة حركة المدّ والجزر ولا

يمكن ملاحظة بقع المياه. مياه البحر تتلألأ تحت ضوء القمر. أُنصت لصوت الأمواج المتكسّرة التي تجلب معها رائحة تنفّس الأمواج القوية في الظلام. ورائحة الأرض أيضاً، تلك الرائحة الفلفلية اللاذعة، رائحة الطين اللامرئي. والرائحة الأقوى، رائحة المحيط التي تحمل معها الملح والأعشاب البحرية والانهدامات العميقة وصخور البحر. تلمع النجوم من خلال هالة القمر البيضاء وتومض بالقرب من خط الأفق. يمكن أن تكون تلك أضواء المراكب المتوقّفة لتفرغ أقفاص الصيد. أنظر إلى كلّ هذه الأنوار، بعضها من صنع الإنسان كفنار «غلينان» والأُعلومات من جهة جزيرة «تودي»، وبشكل متقطّع من فوق رؤوس أشجار الصنوبر، ضوء منارة الرأس الكبيرة الذي يطبع ظلّ الأشجار على الغيوم. كلّ نورٍ يلمع حسب إيقاعه الخاص، طويلاً أو مقتضباً. يبدو لي وكأني أعرف هذه اللغة. يُطمئنني ذلك ويقلقني في آنٍ معاً، مثله في ذلك مثل كل شيء له علاقة بالبحر ليلاً... أشعر بالبرودة تلامس بشرتي. ألبس سروالاً قصيراً وقميصاً فقط، وأنتعل صندلاً في قدميّ العاريتين. ما من أحدٍ هنا. الليل والبحر خاليان. السماء السوداء عارية. إن كان ثمّة صيّادون، فهم هناك في مكانٍ ما وسط الضباب، من جهة «بيرماك»، نحو «لو را دو سين». أتقدّم على طول الدرب، فيصِلني فجأةً وقعُ خطوات قادمة من الأحراش، أبقار ترعى بحرّيّة بحثاً عن تفّاح برّي. أحاول أن أنسلّ عبر نباتات الجولق، وعلى الرغم من حرصي إلا أنني أيقظت الكلاب في المزارع البعيدة. أتنبح هي عليّ أم أن القمر أثار جنونها؟ جلست على صخرة في وسط الجولق لأتقي الريح. هنالك أرتالٌ من النمل الأسود الذي لا ينام أبداً. أتنفّس ببطء لأملأ جسدي من هدير البحر ومن رائحة الهواء ومن ضياء النجوم والقمر.

في أحد المساءات، قبل أن يحلّ الظلام كليّاً، سرت مع أخي إلى خارج القرية يجذبنا صوت عزف قربة. أحدهم كان يعزف على الرأس من جهة منزل الحرس المبني من الأحجار اللوحية. تصعد تأوّهات القربة وتنخفض حسب عصفات الريح. لا أعلم لِمَ كنّا نتخيّله سائحاً ألمانياً يعزف بعيداً عن القرية كنوعٍ من التحدي. قرأت في تلك الفترة رواية «المخطوف» الرائعة لروبرت لويس ستيفنسون، التي تحكي قصة «دافيد بلفور»، الشاب البريطاني الملاحق من قبل عمّه في أصقاع إنكلترا الثائرة زمن «أوليفيه كرومويل». أذكر المقطع الذي يحضر فيه دافيد تحدّياً بعزف القِرب بين رفيق دربه «ألان بريك» وأحد زعماء عشيرة «كامبيل» المدعو «روبين أويج» بن «روب روي». عزف الواحد تلو الآخر مقطوعاتٍ مشهورة، إلى أن انتهى الأمر باستسلام «ألان» الذي توجّه بالقول إلى منافسه: «أنت وغد يا روبين أويج، ولكنّي لست كفؤاً لأن أعزف في البلد الذي أنت منه!».

لا، لم نقترب من العازف الغامض. استمعنا إلى الموسيقا التي جلبتها لنا الريح، وحين توقّفت عدنا إلى القرية، إلى «كير هويل» دون أن ننبس بكلمة. أعتقد بأن هذه الموسيقا هي ركيزة خلود هذا المكان. من الواضح أن العالم قد تغيّر، تغيّرت عاداته وتقاليده ونسي لغته تقريباً. ولكن حين يعزف أحدهم القربة، هنا، مساءً، في البرية، في الريح وتحت المطر، بعيداً عن البيوت حتى لا يثير نباح الكلاب، فإنّ كلّ ما كنّا نعتقد أنه تلاشى يعود للحياة من جديد.

# خنافس البطاطا

*Doryphores* من اليونانية القديمة وتعني حامل الرمح، «دوري» رمح، و«فوروس» حامل. إلا أنها لا تحمل أي رمح. هذه الحشرة الخجولة والغازية كادت أن تقضي على جزء كبير من محاصيل بروتاني الزراعية في الخمسينيات، لأنها تأكل أوراق نبتة البطاطا كافة. للقضاء عليها، استُخدم مبيد الـ DDT (ثنائي كلورو ثنائي فينيل ثلاثي كلورو الإيثان) دون أيّ اعتبار لسلامة القطط والأطفال والمياه الجوفية. في إفريقيا، تعرّفت عن كثب على بعضٍ من أكثر الحشرات خطورةً كالنمل المحارب المعروف بشراسته، والذي يحفر طُرقاً مستقيمة في الحقول وبين المنازل، والعقارب السوداء التي كنا نعثر عليها مختبئة تحت الأبسطة، وكنّا نضرم النار بها بعد رشّها بالكحول، والبعوض الناقل للملاريا. احتفظت بروتاني لنا بمفاجأة لم تكن عبارة عن بضع خنافس متفرّقة، أو نمل الخشب الزاحف في عتمة الأقبية، بل، في عزّ النهار، جيوش من الحشرات الصفراء والسوداء التي تزيّن ظهورها عشرة أشرطة منتظمة تسير في كل مكان، في الطرقات والحدائق والمراعي وعلى الأسيجة. كانت أعدادها كبيرة جدّاً لدرجة أن مرور السيارات يخطّ أثر العجلات عليها. كان يمكن أن تتملّكنا الرهبة،

ولكن على العكس، بدت لنا الخنافس مثيرةً للاهتمام وعنصراً غير مألوف في حياتنا في «سانت مارين». أذكر أني قضيت شطراً كبيراً من فترة بعد ظهر أحد الأيام جالساً على قارعة طريق أراقب وأحاول تطويع هذه الحشرات. قرّرت أن أُنشئ سيركاً تلعب الخنافس الدور الرئيسي فيه (والوحيد أيضاً). أردت، لأنه كان هنالك جيشٌ منها، أن أجعلها جنوداً. أنشأت مساراً دائرياً بغية أن أعلّمهن الاستعراض العسكري، واحدة تلو الأخرى، دون تدافع. تَسَيّدتُ هذا الجمع الصغير عدة عطل صيفية متتالية، وما زلت أشعر في راحتَي يديّ وعلى بشرة ذراعي بدغدغة أرجلهن المزوّدة بمخالب صغيرة الحجم. أحياناً، كانت تحصل حوادث وتخرج من بطون الخنافس المهروسة مادة بيضاء لزجة عديمة الرائحة. ولكني لم أكن أمارس قطّ ألعاب الأطفال السادية الاعتيادية التي تقوم على انتزاع أجنحة الذباب أو ربط أرجل الخنافس الذهبية بخيطٍ، أو، كما كنت أرى دائماً في «سانت مارين»، التسلّي بهرس الضفادع عبر إغلاق الباب عليها. وضعت مرّةً أفضل جنود السيرك في علبة ثقاب وأطعمتها أوراق البطاطا، تماماً كما تخيّلت الرومان مع مصارعيهم. حين كنت أطلقهم في الحلبة، كانوا يبدون لي مأخوذين بالحماسة للتسابق وأنهم يسيرون بشكل أفضل. حاولت أن أعلّمهم حركات أخرى، كعبور الجسور أو القواطع، لكنّهم اكتفوا بالالتفاف حول العقبات. الأمر الغريب أن ولا واحدة منها حاولت الهروب عبر فتح غمدي أجنحتها والطيران بعيداً. ربما نجحت في ترويضها أو أنها استطابت العمل الذي كانت تفعله.

حين عدت إلى بروتاني بعد أن أصبحت راشداً، بحثت عن خنافس ولكني لم أجدها. هذه الحشرات الجائرة القادمة من أميركا –أتت عبر

شحنات البطاطا القادمة من كولورادو في القرن التاسع عشر، وانتشرت بعد ذلك في الأصقاع كافة التي تؤكل فيها هذه الدرنة، أي أميركا وأوروبا الغربية- اختفت تماماً بفعل حملات الإبادة الشرسة التي تعرّضت لها. رشّ البشر عليها مبيد الـ DDT (أو السمّ الزراعي الجديد المعروف بالغليفوسات) باستخدام مرشّات مزوّدة بمواسير طويلة - لا بدّ أنها هي ما يجب تسميته بحامل الرمح! لا يدرك الأطفال هذه الأشياء جيّداً، ولكن غياب الخنافس بدا لي وكأنه فراغٌ كبير، لأنه يعني غياب دورة حياة كاملة من البيوض إلى اليرقات انتهاءً بهذه الحشرة المجنّحة والخرقاء، النهمة والمسالمة، التي تحمل على ظهرها ألوان الحرس البابوي السويسري. تحسّن محصول البطاطا، لكنْ، هنالك شيءٌ ينقص الأرض البروتانية، ربما هو لمسة الألوان هذه. اختفاؤها يشبه اختفاء شقائق النعمان، التي لا فائدة منها هي أيضاً، من حقول القمح.

# الحرب

أرى آثار الحرب في كلّ مكان. بشكلٍ أو بآخر كنا مازلنا نعيش زمن الحرب. لئن تأمّلت ذلك الزمن، زمن الطفولة القصير، العشر سنوات أو الاثنتَي عشرة سنة التي تنتهي بالولوج إلى عالم البالغين، فإن بروتاني تتّخذ معنى مختلفاً عن ذلك الذي تمثّله اليوم بالنسبة لي. بروتاني –وبالأخصّ منطقة «بيجودان» التي كانت أمّي تعشق، تلك الأرض التي فيها طلب والدي يدها للزواج وأنجبت أخي، حيث التجأت بعد ولادتي في نيس بثلاثة أشهر، واضطرّت لتركها بعد أن قرّرت القيادة الألمانية طرد كلّ غير المقيمين منها- هي مكان حربٍ ودمار حتى لو لم تكن قد طبعت في ذاكرتي أيّ صورة من تلك الفترة، فذكرياتي الأولى متعلّقة أكثر بريف مدينة نيس الذي التجأنا إليه.

لقد رغبَتْ من دون شك في العودة إليها كما يرغب أيّ إنسان في العودة إلى موطنه الأصلي. لقد قضت شطراً من طفولتها في بروتاني إبان الحرب العالمية الأولى. وبعد أن بلغت العشرين من عمرها كانت تجيئها كلّ صيف في العطلة مع عائلتها لتزور «دوارنيز» و«سان ميشيل ان

غريف»، و«لو كنيدي» على وجه الخصوص. بعد زواجها من ابن عمّها، اختارت هذه الأرض لتقضي شهر عسلها في «بولدو»، وتسبح في «لاتيا» وتركب القارب الصغير الذي اشتراه والدي. هنالك صورة لهما على الشاطئ الرملي، يلبس والدي فيها سروال الصيّادين القماشي السميك، في حين تلبس والدتي ثوباً مع مريلة وينتعلان قباقيب خشبية. كانت تلك لحظة سعادة مشتركة سبقت ذهاب والدي إلى إفريقيا إبان الحرب.

تتبّعت آثار الحرب في «سانت مارين». في الخمسينيات كان لا يزال هنالك نقاط استحكام في البرّيّة، وبقايا جدران أسمنتية وعوائق أكلها الصدأ في رمال الشاطئ البيضاء. أحياناً كنت أعثر على علب كونسروة مدهونة باللون العسكري تحتوي على لحم خنزير أو حليب مركّز جلبتها حركة المدّ والجزر. في أحد الأيام، رأيت الفتيان متجمهرين عند الشاطئ. لدى اقترابي منهم، رأيت ذلك الشيء الشنيع، لغماً بحريّاً راسياً على الشاطئ لونه أسود ضارب إلى الخُضرة، يحمل رؤوساً مدبّبة تشبه أرجل السلطعون علقت عليها بقايا أعشاب بحرية، علامة موت تتناقض ووداعة الشاطئ. جاء رجال الشرطة بعد هنيهة، واضطرّ الفتيان للاحتماء خلف الكثبان لحين إبطال مفعوله.

كان الناس يتناقلون أساطير الحرب في «سانت مارين» كما لو أنّ حالة الذهول التي عاشها رجال بروتاني عصيّة على التلاشي كلّياً، نوع من الخوف يشوبه شيء من حقد، شيء يتشاركونه دون أن يفهموه حقّاً، فوجود الغرباء على هذه الأرض الريفية كان نوعاً من تكدير للذاكرة. في

«بولان» هنالك هذه القصة الغريبة التي بطلها شابّ خرج ليلاً -كما كنت أفعل أنا- فصاح عليه الحارس الألماني من حصنه: «ما هذا؟»(*). هرب الشاب ولكنه أُصيب برصاصة في فخذه. هرع الجندي الألماني نحوه وحمله إلى المزرعة المجاورة حيث استولى على عربة يجرّها حصان ونقل المُصاب إلى مشفى «بون كروا». في المكان نفسه أيضاً، رمى حارسٌ آخر على مزارع كان يصطاد فأرداه قتيلاً.

في نيسان 1940، كنا (أمي وأخي وأنا) في نيس، المدينة التي وُلدت فيها. في أيار من ذلك العام عدنا إلى بروتاني. أبي، الذي حاول دون جدوى عبور الصحراء من «كانو» إلى «ميرس الكبير»، كان مقتنعاً بأن هذه الحرب ستكون طويلة ودموية، ورغب في نقلنا إلى جنوب إفريقيا عبر إنكلترا. ما كان يجهله (مثله في ذلك مثل كلّ الفرنسيين) أنه في الوقت نفسه الذي كانت أمي فيه لاجئة في «بون لابي» تستمع إلى الراديو معلناً أن قوّاتنا استطاعت احتواء العدوّ على جبهة «لو مارن»، كانت ترى الجنود الألمان يستعرضون في الشارع من خلال نافذة المطبخ. راحوا يعيشون نشوة انتصارهم في ذلك الوقت. حكت لي أمي، التي لا يمكن لأحد أن يتّهمها بمحاباة العدوّ (رغم أنها كانت ترفض استخدام كلمة «بوش» النابية بحقّ الألمان)، عن مرور جنود الاجتياح في الطرق البروتانية. كان جلّهم شباباً يافعاً، أطفالاً تقريباً، عاري الصدر وبرونزيّي اللون، يبدون وكأنهم يقضون وقتاً ممتعاً. ربما كانوا على شبه كبير بالألمان الذين أراهم اليوم يركبون الأمواج في خليج «تريباسيه». بالنسبة لهم كانت تلك

(*) بالألمانية في الأصل. [م]

نهاية الحرب، شيئاً يشبه العطلة الصيفية نوعاً ما. لم يكونوا عدوانيين ولا وقحين. كانت بروتاني بالنسبة لهم نهاية المطاف، يحلمون بها مذ كانوا في الخنادق أو مكدّسين في الشاحنات المشدّرة المتوجّهة غرباً. مثّلت بروتاني لهم نهاية الحروب كلّها، فقد كانت النقطة التي لا يمكن الذهاب أبعد منها. حدث هذا في صيف عام 1940 ولم يكونوا يعلمون بأنّ الحرب قد بدأت للتوّ، وبأنّ عليهم أن ينسحبوا يوماً ما هزيلين وجائعين تغطّيهم الدماء بفعل قصف قوّات الحلفاء وفخاخ المقاومة الفرنسية. بالنسبة لوالدتي، الرجال في بروتاني كما في كل المناطق المحتلّة كانوا سجناء ولم تكن تصل أيّ أخبار منهم. ما من أحد كان يعلم شيئاً عمّا يحصل على الجبهة الشرقية، ولا عن الاضطهاد الذي يتعرّض له اليهود، ولا عن عمليات النصب في السوق السوداء، ولا عن الوشاية التي أخذ المواطنون «الصالحون» العازمون على التخلّص من الشيوعية البغيضة يلجؤون لها. ما أخذت هي تراه لدى مصادفتها إياهم على الطرقات أثناء جلبها الحليب أو الخضراوات، هو رجالاً لا مبالين وبريئين، ولكنها كانت متأكّدة من أن نهايتهم ستكون تراجيدية.

خاب أملها لاحقاً حين طلبت منها القيادة الألمانية في «بون لابي» الحضور، وأفهمها ضابط ألماني متعالٍ أن عليها أن تغادر بسرعة مع طفليها الرضيعين ووالديها العليلين. أضاف الرجل الذي سلّمها مذكّرة الطرد: «بقيتِ وقتاً طويلاً في بروتاني، لقد حان الوقت لنستمتع نحن بها!». بدا لها الخروج من بروتاني كالطرد من الجنّة، ففيها كلّ ما تتمنّاه – ومن ثم إلى أين بإمكانها الذهاب؟ لقد فقدوا كلّ شيء ولم يعد بإمكانهم الذهاب إلى باريس. أما الجنوب، فلذلك عليهم أن يعبروا بلاداً ممزّقة ووضع

حياتهم في خطر إن استقلّوا هذه السيارة المهترئة، فلم يكونوا متأكّدين ما إن كان في السيارة ما يكفي من الوقود وخصوصاً مع طفلين أحدهما ما زال رضيعاً. إضافةً إلى ذلك، كان هذا يعني نهاية حلم أبي بأن نستقلّ قارب صيد للذهاب إلى إنكلترا ومن ثم إلى مكان لم يصله بعد جنون الحرب.

أوامر القائد الألماني لا تُناقش. حمّلت السيارة بالمؤن والحاجيات الأساسية وانطلقت بها.

# في البحر

في قيظ الصيف يبدو البحر بمنزلة ذاكرة عالم شتائي. هذا هو البحر الذي عرفناه أثناء عودتنا من إفريقيا في عام 1950 – قبل البحر المتوسط وبعد خليج «تاكورادي» على الطريق إلى نيجيريا حيث أخذنا حمّاماً من زبد البحر. لماذا اخترنا هذا البحر بالتحديد؟ ربما لأني تعلّمت السباحة في هذا البحر. حتى ذلك الوقت، كنت أخوض في الماء أو أعوم باستخدام إطار عجلة شاحنة داخلي في مسبح ضابط مقاطعة «أباكاليكي». تلقّيت دروس السباحة على شاطئ «سانت أون» في جزيرة «جيرسي»، عندما كنت في العاشرة من عمري. إنه بحر «سانت مارين» نفسه، عنيف ومتقلّب ويصل الجزر فيه إلى حدّ الأفق. كنا نغامر بالاقتراب من الأمواج فتصعد المياه وتغمرنا فجأة.

في شهر أيلول، في فترة حدوث مدّ الاعتدال الخريفي، فاجأنا البحر. كان الجوّ بارداً، البحر والسماء رماديّا اللون، ريح المدّ قد بدأت بالهبوب. تكسُّر الأمواج ذو الصوت الذي يشبه صوت رعدٍ مكتوم بات قريباً منا. ما كان مجرّد لعبة أطفال في البحر أصبح مبعثاً للقلق. كنت قد قرأت في تلك الفترة رواية ذات عبرة، لم يعد يذكرها أحد اليوم، عنوانها «صخرة

النوارس»، وجدتها في مكتبة جدّتي. يدفع البحر بأمواجه على الرمل القاسي ويجتاح شيئاً فشيئاً المستنقعات الصغيرة، يتصل بعضه بالبعض الآخر ويستجمع قواه، فبتنا نحن الاثنين حبيسَي جزيرة رملية. أخي أطول مني، تجاوز لسان البحر الداخل وراح ينتظرني على الجانب الآخر. أشار إليّ لألتحق به ولكنّي تردّدت، فالشاطئ بعيد يلفّه الضباب، والتيار الذي يفصلني عن اليابسة أصبح عنيفاً ويمرّ كالسيل باتجاهات تحكمها حركة الأمواج. عليّ أن أتّخذ قراراً. خضت في البحر البارد الذي وصل إلى مستوى خاصرتي. تعثّرت فجأةً وسحبني التيار. دروس السباحة الحرة لا تفيد في أيّ شيء هنا. عليك السباحة ككلب صغير، محرّكاً يديك ورجليك ورأسك خارج الماء دون أن تتنفّس. بعد هنيهة، شعرت بالرمل تحت رجلي فزحفت على ركبتي حتى تخلّصت من التيار. ركضت على الرمل القاسي في الريح التي تحرق الأذنين. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أسبح فيها، المرة الأولى التي ينتابني فيها شعور القوة والانتصار. أنا أسبح الآن، تعلّمت السباحة ولن أنساها أبداً. عمري عشر سنوات والبحر هو من علّمني تجاوز التيار، هو من دلّني على الطريق. في «سانت مارين» و«مسترلان» و«لاتورش»، في كلّ مكان أذهب إليه، أستطيع الآن العبور والانزلاق والطيران.

# الجَزر

ككلّ الأطفال الذي يعيشون بالقرب من البحر، اكتشفت الأسرار وقت الجزر. في «سانت مارين»، لم أكن آخذ حركة المدّ والجزر بعين الاعتبار قبل التوجّه إلى الشاطئ (حتى ولو كان المصطافون في بروتاني يعتبرون المدّ العالي ضمانة الحصول على سباحة مريحة في مياه دافئة وعلى أمواج تلفّهم بالزبد). غالباً ما كنت أذهب إلى البحر حين يكون المدّ خفيضاً. أتوجّه إلى رأس «كومبريت» الذي يقع في منطقة خالية من البناء والأسوار البحرية. لقد كانت منطقة سوداء حافظت على وحشيّتها، تشغلها مساحاتٌ من الصخور التي تظهر مرّتين في اليوم مع انحسار المياه عنها. كانت المياه تنحسر بعيداً لدرجة أنه كان يبدو لنا أنه يمكننا الوصول إلى أعمق نقطة في المحيط، أو المشي تحت البحر مثل غوّاصي المغطسة كما في رواية «جول فيرن». نتقدّم في وسط الصخور التي تغطّيها أعشاب البحر، حيث مياه المستنقعات تتلوّن في بعض المواضع بلونٍ أحمر قاتم لوجود النعمان البحري. نلتفّ حول حفر سوداء مكتظّة بالحياة. ليست الأصداف ولا القريدس ما يثير اهتمامي. كان ذلك كما لو أنني أمشي في عالم من الأحلام بحثاً عن كنوز غارقة تحرسها الوحوش.

لم ألتقِه ولكنّي تعرّفت على هذا الكائن الحيّ دون أن أراه. في المستنقع الأبعد الذي هو أشبه ببحيرة منه بمستنقع، قريب جدّاً من البحر لدرجة أن كلّ موجة كانت تتكسّر على الحيد تصلني وتنسال كشلّال حول قدمي، خرج أخطبوطٌ من مخبئه جزئياً واتجه نحوي. بلطف، مدَّ مجسّاته وراح يتحسّس قدميّ العاريتين. لم أرَه. لم أتحرّك بل انتظرت أن أشعر بلمسته الخفيفة على أصابع قدمي. يريد فقط أن يلتقيني، أن يتعرّف عليّ. تحت ضوء السماء، أرى أذرعه الدخانية اللون ناعمة الملمس. لقد تعرّف عليّ. في كلّ مرّة كنت أجيء فيها هنا، كان يلمسني بأذرعه. في البداية كنت قلقاً قليلاً وهو أيضاً من دون شكّ. في نيس، على البحر المتوسط (مكان ليس فيه حركة مدّ وجزر قويّة) رأيت صيّادين يقلبون أخطبوطاً على الشاطئ ليختنق. أخذ الحيوان يلمع تحت الشمس تحيطه فوضى مجسّاته والحبر الخارج منه. كان يحتضر. هنا، مع الجَزر، أنا لست في مكانٍ أنتمي إليه. أنا في عالم الأخطبوط والأسماك، ليس في عالم الإنسان. أتخيّل أن أيّ أحدٍ باستطاعته صيد الأخطبوط بسهولة باستخدام ملقط، يُخرجه من مخبأه ويقلبه حتى النفوق. لم أتشارك سرّي مع أحد. إن ذهبنا إلى الصيد مع الفتيات (ماريز وجانيت) كنت أصحبهما بعيداً عن مسكن الأخطبوط. هذا سرّي أنا. حين كنت آتي وحيداً وقت الجزر، أدخل المستنقع فتنسلّ المجسّات الخفيفة خارج الحفرة وتلمس قدمي وتلتفّ حول كاحلي. إن تحرّكتُ، انكمشَتْ. لذا أبقى بلا حراك في صخب الريح والبحر. اليوم، الغد، كلّ الحياة. اللقاء ممكن.

المستنقعات التي تتشكّل مع انحسار مياه المدّ لها سحرٌ لم أشعر به في أيٍّ من متاحف الحياة المائية التي زرتها. هذه المياه السوداء الغامضة

ذات الرائحة كانت الأساس المرئي للحياة القديمة بين البحر والبر، معلّقة وجاهزة للمغامرة ولغزو القارّات المغمورة. يخفق قلبي بشدّة كلّ مرّة أتقرّب منها كما لو كنت ذاهباً إلى مقابلة قُرِّرت فجأة. لم تكن تخامرني الرغبة في الصيد هنا. بدت لي شبكة صيد القريدس مثيرة للسخرية. تحت سطح المياه الذي تصقله الرياح فيصبح كسطح المرآة، كنت أترقّب شيئاً أجهله، حيواناً أو نباتاً، أو الاثنين معاً، وبالأخصّ النعمان البحري. كانت تنكمش لأضعف لمسة، فلا يبقى منها سوى ماسورة قاسية ضاربة للحمرة. حين تتمدّد من جديد، كان تويجها يتفتّح على شكل زهرة مرصّعة وبرتقالية. كنت أتخيّل أنها تراني من الجانب الآخر للمرآة. كانت دولابيات مجهولة ويرقات وقشريات شفّافة تسبح بتعرّج حولها. لا بدّ أني كنت منجذباً إلى فكرة وجود عالم مغلق، عالم كامل لا يحتاج إلى شيء من خارجه، يعيش مرّتين يومياً دورة حركة المدّ والجزر مثل صفوف المحار والصحنية، متعلّقاً أو مختبئاً في حفرته. ثم، بعد انحسار المياه، يرخي عضلاته ليتمتّع بالشمس.

يتمتّع الأطفال بمثل قدرة البالغين على الافتراس. كنا نجتمع في المستنقعات (مع أولاد القرية أو الفتاتين) لصيد القريدس والسلطعون ولانتزاع الصحنية من على الصخور. على ركن من الشاطئ، في ملجأ من هبوب الرياح، أشعلنا ناراً من طحالب جافّة وخشب عائم وطبخنا ما اصطدناه في علبة كونسروة صدئة. أعتقد أني لم أتذوّق شيئاً أطيب من ذلك الطعام على الرغم من رائحة اليود وزيوت الأعشاب البحرية. كان ذلك أشبه بتناول البحر كغذاء.

# لا تورش

*Beg an Dorchenn* وتعني رأس الهضبة، في البروتانية، أو المخدّة إذا أردنا نظراً لشكلها. إن كان هنالك مكان يتفجّر فيه جمال البحر، فإنه موجود هنا. بدا الطريق الواصل إليها من «سانت مارين» بلا نهاية. جهّزت سيارة والدتي «الموناكاتر» للرحلة، دفعها الأولاد كي يُقلع محرّكها الذي رفض العمل بالمقبض، وراحت تسير وتتأرجح وترتجّ على طرقات غرب فرنسا التي كانت في أغلبها غير معبّدة ومليئة بالحفر (كان والداي يسمّيان الحفر أعشاش طيور) للدرجة التي يظن المرء معها أنها تعرّضت توّاً للقصف.

بعد تجاوز «بون لابي» و«سان جان تريلومون»، يصبح طريق «سان جينوليه» مباشراً إلى الرأس، إلى الشمس والمحيط. الوصول إلى «لا تورش» يبعث على الدهشة. تنتصب في المكان بضع مزارع صغيرة تلفحها الرياح، وبضع أشجار هيفاء معوجّة كعجوز قصير القامة، وأسوجة من شجر الطرفاء. بالنسبة لنا نحن الآتين من الريف الجميل في «سانت مارين» المشهور ببساتين التفاح والمروج الخضراء ومنازل الاصطياف المبنية من القرميد والقشّ الحسن، والتي تحيطها حدائق الورود زهرية اللون والأرطنسية الزرقاء، تولّد لدينا الانطباع بأننا ولجنا عالم البربرية.

تشبه «لا تورش» صدر سفينة يشقّ البحر، سفينة سوداء محطّمة نصف غارقة. بالنسبة لأطفال خارجين من الحرب مثلنا، كان لهذا المكان معنىً لم يعد موجوداً اليوم. ثمّة آثار معاقل أنشأها الجنود الألمان على قمّة الهضبة. يُحكى بأنه في ذلك الزمن موّه الألمان تحصيناتهم على شكل صرح من فترة ما قبل التاريخ عبر رفع الصخور وتغطية معقلهم بالتراب ليبدو كتلة جنائزية. لكنّي دهشت أكثر حين علمت أنهم فعلوا العكس، أي إنهم استخدموا هذا الصرح الذي يعود لفترة ما قبل التاريخ لإخفاء نقطة الاستحكام فيه. لم نكن ندخل إليه، فمثله مثل كلّ هذه الأماكن كان شجر العلّيق قد غزا مداخله، وانبعثت من ثغراته رائحة بولٍ وتعفّن كريهة. بالنسبة لي، كان هذا مكاناً يُمارَس فيه السحر الأسود، مكاناً للحرب والموت تدفعنا فيه الريح وتثير الدمع في أعيننا، على النقيض تماماً من قصور الجنيّات.

كنا نشعر بجبروت البحر ونسمع صوت تكسّر الأمواج على الجرف الغرانيتي مشكّلاً رذاذاً يتطاير على جوانب الهضبة. يرتفع الزبد ويصل إلى البرّ. هنا، في «لاتورش»، أكثر منه في رأس «دو را» أو «دو فان»، كنت أشعر بأننا وصلنا إلى أقصى العالم *Pen ar Bed* في هذا الامتداد الذي ما زال يحمل آثار الحرب: أرومات معاقل سوداء راسية على رمل الشاطئ، وعوائق من الأسمنت المسلّح أكلها الصدأ في رمال الكثبان.

كنت أعود دائماً لزيارة «لا تورش»، أكثر من «سانت مارين»، ربما لأنني ظننت أن هذا المكان لا يمكن له أن يتغيّر. كلّ مرّة أتيت فيها إلى بروتاني، كنت أزور الرأس لأستحضر تلك الذكرى التي تعود لسنوات خمس بعد انتهاء الحرب. يتغيّر العالم سريعاً. أطفال اليوم يأتون هم أيضاً إلى «لا

تورش» ولكنهم يرون شيئاً مختلفاً. ينزلقون كطيور على الأمواج الطويلة أو يمتطون ألواح ركوب الأمواج. هنالك أيضاً طائرات ورقية ضخمة تتراقص فوق تلاطم أمواج البحر الذي كان يوصف بالمميت في سابق الأيام. إنه لأمرٌ جيّد، على المرء أن ينسى المعارك، وأن يتجاهل خرائب الحصون التي بناها الروس والبولنديون المُستعبدون. أنا نفسي لا أستطيع ذلك. أرى عنف التاريخ في لمعان البحر والثلج الباهر وطبقات الزبد. العنف والخداع. ما زلت ألحظ أسنان قرش الحرب السوداء المتحجّرة على خرائب هذا الصرح العظيم من العصر البرونزي.

# الدين




القدوم من الجنوب إلى «فينيستير» لم يكن يشكّل تغييراً في الجغرافيا والمناخ وحسب، بل تغييراً كاملاً في منظومة القيم. الجنوب «نيس» لم يكن أقلّ تديّناً أو تقليدية من بروتاني، إذ تجد فيه كلّ المراسم التي يندمج فيها الأطفال غريزياً دون التشكيك في أيٍّ منها. تلك كانت المسيحية المتوسطية، الكاثوليكية الرومانية مع كلّ ما تكتنفه من ديكور وزينة وإيماءات، ومن كنائس مذهّبة ومنمّقة مستوحاة من المعابد الرومانية واليهودية، ومن تقاليد وطقوس مثيرة للعجب، ومن أعيادٍ تجري الاحتفالات فيها في الهواء الطلق، حيث يسير المؤمنون (الذين كنّا منهم كأطفال الرعيّة) في مواكب، لساعاتٍ، حاملين الرايات وأوعية القربان المقدّس، في حين تزأر مكبّرات الصوت: «السلام عليك يا مريم!». مباركةُ مراكب الصيد في المرفأ (ما كان قد بقي من هذا التقليد في ذلك الوقت اختفى كلّياً الآن) التي كانت تجري تحت النظرات الساخرة وتهكّم أعضاء الحزب الشيوعي المستندين على حواجز الشرفات.

الممارسات الدينية في «سانت مارين» كانت أكثر تحفّظاً. أيام الآحاد، كان القدّاس الإلهي في كنيسة «سان فوران» (تغيّر الاسم ليصبح «سانت

مارين» لجذب السيّاح) عبارة عن احتفال عائلي. صحن الكنيسة الضيّق كان يمكن له استيعاب معظم سكّان القرية. يلبس الرجال أطقماً كحلية اللون، أما النساء فكنّ يرتدين أطقم البيجودون ويعتمرن أغطية رأس من الدانتيل. الرجال والأولاد يجلسون على الجانب الأيمن، فيما تجلس النساء والبنات على الجانب الأيسر. كان ذلك تقليداً قديماً قائماً على احترام الأولوية أو اللياقة، أو لأنها العادة بكلّ بساطة.

قبل القدّاس، وسط صخب المؤمنين الذين يأخذون أماكنهم، كانت امرأة عجوز ترتدي الأسود تنتقل من صفٍّ إلى آخر. إنها مسؤولة الكراسي التي كانت تجمع مستحقّاتها. لقد كان الجلوس في الصفوف الثلاثة أو الأربعة الأولى على الكراسي المزوّدة براكع وبمخدّات أغلى من الصفوف اللاحقة حيث يُستعاض عن الراكع بمقعد خشبي. يصبح الجلوس رخيصاً في الصفوف الأخيرة حيث لم يكن هنالك سوى مقاعد خشبية. كان هذا الدخل يساعد هذه العجوز التي بلا موارد في معيشتها. أتخيّل أنها في المقابل كانت مسؤولة عن الحفاظ على حشوة قشّ مجالس الكراسي ونفض الغبار عن المقاعد. كانت الكراسي صغيرة وخفيفة، تصرّ طوال القداس تحت وطأة وزن زوجات المزارعين السمينات وهيجان الأطفال الذين نفد صبرهم. يسود القدّاسَ جوّ محترمٌ، ولم أكن أشاهد مطلقاً المخالفات التي يرتكبها الأطفال النيسيّون الذين يثيرون بعضهم بعضاً، ولا يتوانون عن إطلاق الريح لحظة المرافع في القدّاس.

على الجانب الآخر من الممرّ المركزي، تتبع النساء القدّاس بورعٍ تامّ (الكثير منهن من دون كتاب الصلاة لأنهن لا يتقنّ القراءة)، كنّ يرتّلن وينطقن الردود باللاتينية، ويردّدن الصلوات بالبروتانية وهنّ جالسات

باستقامة في أطقمهن المنشّاة. على الجانب الآخر، يأخذ الأولاد بالتحديق في الفتيات -كانت تلك المناسبة الوحيدة أسبوعياً التي تسمح لهم بتبادل النظرات في ما بينهم- اللواتي كنّ كالدمى في أثوابهن وأغطية رؤوسهن، وشعورهن الحمراء الطويلة المصفّفة على شكل كعيكة.

كان هنالك متغيّبون أيضاً. جزء كبير من الصيّادين أحجم عن الدخول إلى الكنيسة. أيام الآحاد، كانوا يلبسون أطقمهم الكحلية المرتبة ويعتمرون قبّعاتهم الإيرلندية، ولكن ذلك بغية الذهاب لشرب بضع كؤوس والتحدّث في السياسة في حانة رصيف الإنزال.

أما نحن (أنا وأخي الكبير) فقد كنّا نلبس ثوب أطفال الخورس الأحمر الفاقع بقبّته البيضاء. وكما في قصة «دوديه» كنا نحرّك الجرس بقوة حتى يطلب منا الكاهن المنزعج التوقّف بإشارة من يده.

كانت تلك نهاية عصر وبداية عصر آخر، ولكنّا لم نكن نعلم ذلك. ظننّا أن هذه الكنيسة ستستمرّ للأبد. الكنيسة البروتانية كانت تشغل في ذلك الوقت الدور نفسه الذي اضطلعت به منذ بداياتها، حين أتى القدّيسون الإيرلنديون والغاليّون لتنصير بلاد «أرموريك»، مثل القدّيس «سامسون» والقديس «تودي» والقديس «رونان» والقديس «إيف» والقديس «توغودال» والقدّيس «غينوليه» والقديس «كونوغان» الذي عبر بحر المانش على قاربه الحجري. لقد كانت كنيسة رهبانية أكثر منها رومانية، ولدت في البراري والغابات، مستبدّة وحامية، حيث المؤمنون يجتمعون والرهبان، وحيث الكهنة يمثّلون الثقافة والقانون. كلّ شيء كان على عاتقهم: الصلوات والرقيات والإرشاد والجنائز والتضرّعات لشفاء المرضى. هذا هو العالم

الذي كان في طور الاندثار في سنوات طفولتي، بصلواته البروتانية، والأناشيد، والغفران التقليدي، حيث لم يكن هنالك سيّاحٌ ينجذبون إلى هذا المشهد المحلّيّ.

لم تشذّ بروتاني عن القاعدة. في كلّ أنحاء فرنسا، بات الدين أكثر عقلانية، أكثر تنظيماً. منعت البلدية في «نيس» المواكبَ وحفلات مباركة القوارب، بحجّة أنها تعيق حركة السيارات. في بروتاني، في فترة مراهقتي التي توقّفتُ فيها عن المجيء إليها، خلَت الكنائس من المؤمنين وأُغلق بعضها أو حُوِّلت إلى متاحف أو إلى مساكن صيفية. الكهنة التقليديون في بروتاني تحوّلوا إلى كهنة متنقّلين أتوا من مناطق أخرى أو حتى من قارات أخرى. اعتُمد اللون الأخضر في ألبستهم عوضاً عن اللون الذهبي، وجرى تحويل اتجاه المذبح ليواجه المؤمنين في الكنائس كما لو كنّا على خشبة مسرح. تخلّى الكهنة والراهبات عن لباسهم التقليدي وأصبحوا يرتدون اللباس المدني كي لا يصدموا غير المؤمنين. في بعض كنائس المناطق المعزولة (في «بولان» بالقرب من «دوارنينيز») حضرت قدّاساً ترأسته بأكمله مجموعة من النساء في كنيسة زُيّنت بباقات من الزهور. كان ذلك جريئاً جدّاً منهن، ولكن لا يبدو أن أحداً أعارهنّ أيّ انتباه.

# ما قبل التاريخ

كأطفال كنا ننتمي إلى العالم اللاتيني المتوسطي، لأننا نشأنا على ساحل المتوسط في ألفة أشجار الزيتون والصنوبر والنخيل وأقاصيص الجيرانيوم. كان ذلك يمنحنا نوعاً من الفوقية على باقي سكّان فرنسا. كيف للمرء أن يقرأ «فيرجيل» في باريس التي تغطّيها الغيوم الرمادية ويحموم مدافئ الفحم؟ على الرغم من ذلك، كانت قناعاتنا تتزعزع كلّ صيف في «سانت مارين» البروتانية، بفعل الريح والمطر الخفيف وحركة المدّ والعواصف وبساتين تفاح والبراري (la lande).

لقد تعلّمنا التعرّف على البراري. من خلال اللغة البروتانية في البداية، إذ إنّ *Lann* تعني المساحات التي يسودها العلّيق، هذا الفراء الرمادي المائل للخضرة الذي يغطّي الأرض ويغزو الأراضي غير المأهولة. هل كنا نعلم أنها كانت تُزرع؟ لا أذكر رؤية شاحنات قلّابة محمّلة بهذه النبتة التي تستخدم لإطعام أحصنة الجر وحيوانات أخرى، أو أني لمحت في باحات المزارع الجهاز اليدوي الذي يسمح بتقطيع فروعها. ربما انقرضت هذه الأدوات في فترة ما بعد الحرب. كان لا يزال هنالك الأحصنة (من السلالة البروتانية القوية والثقيلة) المربوطة إلى عربات لنقل الأعشاب البحرية أو

لجرّ المعزق. ولكن ملكيّتها كانت تعود في أغلب الأحيان إلى مزارعين عنيدين أو فقيري الحال يريدون المحافظة على استقلاليتهم. ساد الإله الحصان (مارك الذي أعطى اسمه لملك «كورنواي» في قصة «تريستان وايزو») على العالم السلتيكي منذ آلاف السنين، ومن غير المعقول أن يختفي الآن تحت وطأة المكننة (الأمر نفسه ينطبق على منطقة الألزاس). من المحتمل أيضاً أن سنوات الحرب أجبرت الناس على العودة إلى نظام الجرّ هذا من جديد.

*Al Lann* هي الأساس في هذا النظام الاقتصادي. في نهاية الصيف، كانت تقدّم عرضاً من الزهور الصفراء حين تتفتّح بتلات الجنستا الذهبية. وحدها المناطق القريبة من البحر تحتفي بالثقافة البرّيّة. لقد كانت تلك أرضاً للأرانب واليحمور والثعالب وليس للبشر. ربما لعرقٍ بشريّ مختلف، انقرض اليوم. أثناء جولاتي في البرّيّة من جهة خليج «أوديرن»، وعلى طول المنحدرات، وفي رأس «لاجومان»، فهمت الصور التي قرأتها في الكتب، ولا سيما لدى «روبرت ستيفنسون» لمّا وصف الانبهار الذي سبّبته البرّيّة في نفس الشاب «ديفيد بلفور» ورفيقه الهارب «ألان بريك» بعد هطول الأمطار. فبعد أن هربوا من جنود «كرومويل» وعدَوا عبر الأحراش تحت مطر غزير، وجدوا أنفسهم فجأةً في برّيّة ترويها شبكة مياه تشبه الدانتيل تسيل بين العلّيق والسرخسيات. توقّفوا عندئذٍ عن الركض مشدوهين بجمال المنظر.

هذه البرّيّة أو، كما أفضّل تسميتها، هذه الغرابة، شعرت فيها يوماً بالقرب من «بينمارك» حين وجدت في وسط الأرض حجراً مسطّحاً يشبه

قارباً من الغرانيت، خُطّت عليه أشكال هندسية، كما لو كانت رسالةً تركها إنسان ما قبل التاريخ. أدركت من ثم أن هذا الموقع كان يُستخدم لشحذ الأدوات الحجرية. الأدوات والرجال اختفوا ولكن حجر الشحذ ما زال ثابتاً في أرض العلّيق هذه، على الحال الذي تركه مستخدموه فيه قبل عشرة آلاف عام. هو الشعور بزمن ثابت تتلاقى فيه القرون، مكان يمكن للمرء فيه أن يلمس الزمن بأصابعه.

# الغموض

الغموض هو الشعور الأكثر استمرارية الذي احتفظت به من طفولتي في بروتاني. ربما لأنه كان يتلاقى مع سحر الطبيعة في إفريقيا، وقوة العواصف الرعدية والأمطار الغزيرة التي كانت تهطل على منزلنا في «أوغوجا»، وقبّة الأشجار العملاقة على طريق «أوبودو» الواقعة على الحدود مع الكاميرون، وغرابة بيوت الأرضة التي يبنيها النمل الأبيض في مناطق السافانا.

في بروتاني، هنالك قسوة البحر والريح والأمطار، وقسوة حرارة الشمس أيضاً في بعض الأيام. عزلة الجون بصخورها الضخمة وكهوفها التي تتفجّر فيها الأمواج. والبراري التي تجد فيها أحياناً أنصاباً حجرية، واسمها في البروتانية *Peulven* أي الدعامات الحجرية. لقد ذهبنا إلى كلّ الأمكنة التي توجد فيها هذه الصروح. في «لوكارميكيه»، لرؤية نصب حجري صدعه البرق أو النشاطات البشرية، نصب ضخم يصل طوله إلى عشرين متراً ويزن ثلاثمئة طنّ؛ في «كارناك»، تسلّقنا ألواحاً حجرية ونصباً جنائزية، ولعبنا في وسط ما يشبه فيلقاً من الحجارة؛ في «لوكتودي»، لمشاهدة نصب حجريّ غارق؛ في «غافريني»، عبرنا بقاربٍ ذي مجاديف

البحرَ لنصل إلى معبد تحمل جدرانه دوائر متّحدة المركز قال عنها الدليل إنها تمثّل بصمات بانيها. أذكر أني وضعت أذني على غرانيت الدولمون لأستمع إلى الاهتزاز الكهربائي الذي يُصدره، وسمعته! ما بدا لي خارجاً عن المألوف وغير قابل للتصديق ليست هي الصروح البدائية، بل الاعتقاد أن البروتانيّين وصلوا إلى هذه الأرض حيث استقبلتهم الآلهة التي احترموها وخشوها، وأن الآلهة سمحت لهم بالاستقرار في ربوعها. ما من شكّ أن قدومي من مكان بعيد وعدم انتمائي إلى أي مكان محدّد على الإطلاق –فقد كنت ضائعاً بين موريشيوس والدي، وبروتاني أجدادي، ونيس طفولتي– جعلني أشعر بغرابة في العالم، نوع من الانكسار والغربة. كانت هذه الدعامات التي تناجي السماء والأزقّة التي تشبه حراشف التنّين والسفن الراسية في بحر العلّيق تهمس لي بأنّ ثمّة عالماً سبق عالمي، وبأني أمرّ هنا مرور الكرام...

عدنا إلى جذورنا. يبدو هذا اليوم مثل جولة ميدانية على متن سيارتنا القديمة. انطلقنا في الصباح الباكر وسرنا باتجاه «كامبريليه» قبل أن نتوجّه إلى الداخل كي نصل إلى «بونتيفي». كانت تلك منطقة من بروتاني تختلف عن المناطق الساحلية، منطقة معزولة تقع في نهاية سلسلة من وديان ضيّقة، يعيش السكّان فيها بتجمّعات أقرب إلى المزارع منها إلى القرى. تبدو أسماؤها مألوفة: «جوسلان»، «لوستومو»، «لوستانج»، «كيرفين». في النهاية وصلنا إلى «كلوزيو» التي قال أبي، دون أن يكون متأكّداً البتّة، إن أصولنا تعود إليها. كانت عبارة عن بضع مزارع قديمة تبدو كمنازل محصّنة فسحاتها طينية. «سلّموا على أولاد عمّكم!» قال لنا والدي، ولكننا لم نكن

نرغب بذلك حقّاً. وقف ولدان أمام مدخل المزرعة بلا حراك وراحا ينظران إلينا كما لو كنّا غزاة. ربما كانا في مثل عمرَينا. يلبسان ثياباً رثّة وينتعلان جراميق، وجوههم حمراء اللون وعيونهما صغيرة تطرف من نور الشمس. أذكر أن أنف أحدهما كان ملوّثاً بالمخاط. ما أثار دهشتنا أكثر هو شعرهما، فقد كان هذا الشعر الأملس مقصوصاً على شكل طاسة مقلوبة، الأمر الذي يجعل الشعر يبدو كقبّعة من قشّ كثيف ذهبي اللون. لا أذكر أننا توجّهنا بالكلام إليهما. لم يقولا شيئاً فقد كانت سحنتهما تدلّ على العند والحذر والخوف. كانا بروتانيين من عصر مختلف، نشأا في مزرعة بعيدة عن البحر، بعيدة عن السيّاح والباريسيّين. كان يمكن لهما أن يكونا في مكاننا ونحن في مكانهما لو أنّ التاريخ أخذ منحىً آخر. لم أنسَهما. عدت لزيارة هذه القرية مرة أخرى بعد غياب طويل عن بروتاني. تغيّر كلّ شيء هنا أيضاً. لم يعد هنالك أطفال بشعور مقصوصة باستخدام الطاسة ينتمون إلى العصور الوسطى بل بضع مزارعات يرتدين مرابيل، أيديهن ووجوههن محمرّة بفعل برودة طقس الريف. تكلّمت مع إحداهن وقالت لي إن اسمها «جوسلان»، على اسم جدّتي.

لماذا هجر البروتانيّون أرضهم إبان الثورة الفرنسية؟ نشأت وأنا أستمع إلى أسطورة جدّي الأكبر «أليكسي فرانسوا» الذي التحق بالجيش الثوري في السنة الثانية للجمهورية، والذي هاجر بعد ذلك إلى جزيرة فرنسا (موريشيوس حالياً). قرأت الرسائل التي كتبها إلى والدته حين كان عالقاً بباريس في خريف 1792 بعد معركة «فالمي». قال في إحدى الرسائل ببساطة: «تعيش المدينة في سكينة. ننتظر محاكمة الملك الذي سينزل عليه

غضب الشعب مؤكّداً». لقد كان متحمّساً للجمهورية ومناصراً للفدرالية. حارب الجيشَ البروسي وتعرّف على وجه الحرب المرعب كمساعد جرّاح يبتر الأيدي والأرجل. كتب لأمّه وقتئذٍ قائلاً: «بسبب هذا الجزّار سيكون هنالك الكثير من المشوّهين في صفوف الشباب الفرنسي». بعد 1793، رفض ثورة الشوانوري(*) وشارك في قمع مناصري الملكيّة في «موربيهان». مع ذلك، رفض الظلم الذي مارسه الجيش الثوري في هذه المقاطعة البائسة والجائعة. في إحدى سردياته (التي أملاها على ابنه بعد استقراره في جزيرة فرنسا)، حكى كيف واجه القمع عندما كان جنديّاً شابّاً. كانت فصيلته تجوب «موربيهان» بحثاً عن قمح تموّن به الجيش. فأخفى أحد الفلّاحين قمحه تحت حجر رحى، ولمّا عثر عليه الجنود تحضّروا لشنق الفلّاح دون أيّ شكل من أشكال المحاكمة. تدخّل جدّي محاججاً بأن الجيش الثوري لا يمكن له أن يتصرّف كقطّاع الطرق، وأقنع الرجال بأن يدعوه يصطحب الفلّاح إلى بلدة مجاورة ليحصل على محاكمة عادلة. حين مثل أمام القاضي، قال له جدّي: «بإمكانك أن تأمر بشنق هذا الرجل، ولكن حينئذٍ عليك أن تشنق جميع البروتانيّين الذين يخفون قمحهم لإطعام أولادهم». استمع القاضي لجدّي وحافظ على حياة الفلّاح. بعد فترة، تعرّض أحد الجنود لجدّي وقال له: «أيها المواطن، عليك أن تقصّ شعرك». في ذلك الزمن، كان البروتانيّون يطيلون شعورهم ويربطونها على شكل ذيل حصان. استلّ «فرانسوا» سيفه وقال: «من يريد قصّ ذيلي عليه أن يواجه سيفي أولاً». لم يبقَ له بعد هذا التصريح إلا أن يترك ويرحل.

---

(*) انتفاضة ملكية أو ثورة مضادّة في الأقاليم الغربية الفرنسية، لا سيما في بريتاني ومين، ضد الجمهورية الفرنسية الأولى خلال الثورة الفرنسية. [م]

كلّ هذا إضافةً إلى البؤس الذي كان يضرب بروتاني دفع بجدّي للهجرة إلى الجانب الآخر من العالم. لم يكن ذلك بالقرار السهل بالنسبة له. السفر إلى جزيرة فرنسا كان يعني رحلةً محفوفة بالمخاطر تدوم عدة أشهر، واليقين بأنه لن يعود يوماً إلى فرنسا. لا بدّ أن لحظة وداعه لأمّه ولأخته كانت قاسية جدّاً. سافر مع زوجته، جولي، ذات العشرين عاماً وطفلته الرضيعة التي بلغت تقريباً ثلاثة أشهر من عمرها. بحسب جواز سفره، كان في سنّ السادسة والعشرين، طوله خمسة أقدام وستّة إنشات، شعره كستنائي اللون، عيناه زرقاوان، وعلى وجهه علامات إصابته بالجدري. على إحدى صفحات الجواز يمكن قراءة أنه كان مسافراً بصحبة زوجته وابنته وخادمين اثنين (عبدان اشتراهما من على رصيف ميناء «الوريان»)، طبّاخ صيني وغسّالة ملابس من مدغشقر. اسم السفينة كان «لو كوريه دي زند»، وهي سفينة شراعية ضخمة مزوّدة باثنَي عشر مدفعاً. بنى فرانسوا كوخاً خشبياً على سطح السفينة له ولزوجته، وملحقاً ليضع فيه الخنازير والدجاج. كانت تلك بداية حياة جديدة، وما زلت أتخيّل شعورهما، هو وزوجته، لدى مغادرة السفينة ميناء «لوريان» والمرور أمام رأس «غافر». هذا القرار الذي أخذه بالرحيل زمن إرهاب الثورة هو السبب في أننا لم نولد في بروتاني، وفي أنه كان علينا أن نجترح أصولاً أخرى لأنفسنا.

# بريز أتاو!

*Breizh ato* هو النداء الجامع الذي يستخدمه البروتانيّون والمحفور في قلب كلّ من ورث هذا الماضي (حتى ولو كانوا مثلي لا ينتمون إلى أيّ أرض). يشبه هذا النداء الكلمات التي وشمها الممثّل شون كونري على ذراعه (*Scotland for ever*). هنالك من يسخر من ذلك أو لا يبالي به، كما لو أنّ الانتماء لبروتاني يشكّل عائقاً أمام الانتماء لفرنسا، كما لو أنّ الانتماءين متعارضان جذريّاً، أو أنّ كلّ هذا أصبح من الماضي الغابر ولا يفيد سوى في تغذية نوستالجيا مبهمة وضعيفة. الحقّ يقال، إنّ الأماكن التي تعرّفت عليها في طفولتي قد تغيّرت، وإنّ الحداثة دمّرت أسلوب عيش الأسلاف وثقافتهم، وإنّ بروتاني قد أعادت صياغة نفسها لتتلاءم والنظم الحديثة: طرقات سريعة، ومناطق صناعية، وسياحة جماعية، وتمدّن منفلت. النوستالجيا باتت إحساساً غير مُشرّف، هي ضعف وانطواء ترشح منه المرارة. هذا العجز يمنع إدراك ما هو موجود، يدفعنا نحو الماضي في الوقت الذي يشكّل فيه الحاضر الحقيقة الوحيدة.

حاضر بروتاني لم أعد أجده في «سانت مارين»، بل في المناطق

التي لم تصلها السياحة لسنوات طوال، أي ساحل الجروف الغرانيتية من جهة رأس «دو را» وكلّ الرؤوس ذات الأسماء التي تستحضر الذكريات: «لوغونيز»، «كاستل كوز»، «برزيليك»، «ليديه»، «كيرمور»، «لوفان». وعلى الطرف الآخر من الخليج: «مورغا»، «غينيسرون»، «بيليك»، «تالاغريب»، «بين هير». والأسماء التي كانت والدتي تعشق نطقها: «كيرمورفان»، «كورسن»، وذلك الذي كانت تعتقد أنها تسمع عبره هدير الأمواج المتكسّرة على الصخور، المسمّى في البروتانية *Aber Wrac'h*، وتشعر بوداعة بساتين التفاح وجمال الوديان بالقرب من القرى في «كورنواي» في أرض «ليون» أو في داخل «موربيهان» بالقرب من نهر «بلافيه» أو «إيليه». كلّ ذلك ما زال موجوداً، ولكنّهم أصبحوا جزراً في محيط من التحضّر المتسارع. أمسى الساحل في بعض المناطق ضحية ما يُعرف في علم الجغرافيا بـ«الامتداد العمراني المبعثر» (المثال الأوضح على ذلك موجود في جنوب فرنسا على الشاطئ الأزرق وفي مقاطعة «لوفار»). يخيّل لك، بدءاً من شهر أيلول في مناطق «سان جينوليه» أو «سان نيك»، أنك تعبر مناطق مهجورة تماماً، بعد أن ترك سكّانها منازل اصطيافهم. شعور بالأسى والهجران ينتاب المرء. كم هم صلبون أولئك الذين يقاومون إغراء الرحيل. الذين ما زالوا متمسّكين بأرضهم ومزارعهم. دمج الأراضي جعل من أغلبهم مزارعين كباراً يملكون مساحات تمتدّ لعشرات الهكتارات ويستثمرون العديد من رؤوس الماشية. لكنهم لا يُعدّون أثرياء على الرغم من ذلك، بل يعيشون كلّ يوم بيومه بلا استراحة، وحيدين تقريباً ومعزولين واحدهم عن الآخر. لقد قاوموا في زمن الثورة والمجاعات وإبان حروب القرن العشرين الدموية واختاروا البقاء. باتت الخيارات اليوم أكثر سهولة، ولكنها تحتاج إلى بطولة في كل الأحوال. عليهم أن يقاوموا

ليس الصعوبات المادية وحسب، بل الضغط النفسي والاحتقار العام الذي يتعرّض له الفلّاحون أيضاً. يجب الزواج، المزارعون البروتانيّون يجدون صعوبة في إيجاد شريكات حياة لهم. في زمن ولّى كانت الكنيسة تنظّم حفلات زواج، فيُحضرون فتيات من موريشيوس. كانت الفتيات يقدّرن دماثة البروتانيّين وأخلاقهم، ولكنّهن كنّ يعانين من الطقس والكثير منهن عُدن إلى جزيرتهن.

هذه هي بروتاني التي تحرّك مشاعري اليوم. الفضل للمزارعين، ما زالت حقول قمح طفولتي تمتدّ حتى البحر. لا أعرف شيئاً أجمل من حقل قمح يمتدّ على طول الكثبان الرملية أو الجروف الصخرية، يفصلهم أسوجة من العوسج والسرخسيات عن البرّيّة كرمز عنيد للمقاومة ضدّ فوضى البحر وصحراء المنازل الفردية. نحن ممتنّون لمؤسّسة المحافظة على الساحل وللسيّد «دورنانو». عملهم كان نافعاً جدّاً. ولكن يجب ألّا ننسى الدور الذي لعبه البروتانيّون أنفسهم في الحفاظ على الأرض البروتانية وعلى مفهومهم للطبيعة وعلى احترامهم للغموض. الحفاظ على صروح ما قبل التاريخ، وصيانة الدروب القديمة، وتنظيف الشواطئ وحماية الأحراج، ليست وليدة المصادفة. لا ينتظر سكّان القرى معونات الدولة المادية ليشرعوا في ذلك. لأني عدت إلى بروتاني في الستينيات بعد فترة قصيرة من دمج الأراضي، شعرت بالاستياء من وقاحة الحداثة، واعتقدت بأنّ كلّ شيء انتهى وبأنّ المشهد العتيق والحميم سيختفي للأبد. خلال إقاماتي، شهدت، سنة بعد أخرى، كيف عاودت الطرقات المنخفضة التشكّل حسب تعاليم مدرسة المنحدرات *Skol ar Kleuziou*.

الأسوار الحجرية القديمة المتهدّمة في بعض المواضع والتي كانت تفصل بين المزارع أُعيدَ بناؤها، كما جرى الحفاظ على عمارة المنازل البروتانية القديمة، وإن كانت الجدران مصنوعة اليوم من قوالب الخرسانة والأردواز الإسباني. هذه الاستمرارية الصامتة، أو العناد كما يقول البعض، هي ما يشكّل هوية بروتاني، في «أرفور» أو في «أرغوات»، بلاد البحر أو بلاد الغابات، متجاوزة كلّ فولكلور موجّه للسياحة وإظهار الطابع المحلّيّ. بروتاني طفولتي لم تكن ساحرة دوماً. كان هنالك أكوام من القمامة على مدخل القرى، والطرق كانت مزروعة بالسُّكارى، وبعض المنازل كانت في فقر مدقع. لطالما حملت بروتاني علامات البؤس الأسود الذي أغرقتها به وصاية الدولة الفرنسية عليها. المشاهد التي يصفها الرحّالة الإنكليزي «أرتور يونج» الذي زار منطقة «رين» قبل الثورة الفرنسية بقليل كانت لا تزال حيّة: متسوّلون مهلهلون، ونسوة عجائز كسرهن تكلّس العظام. كان لا يزال بالإمكان العثور في «كامبير» على الزقاق القذر الذي عاش فيه «جان ماري دفينييه». بروتاني سنوات رشدي، والآن شيخوختي، غيّرت وجهها وباتت نظيفة ومتألّقة. زُيِّنت المزارع (والفضل في ذلك يعود للنساء) بالزهور، وأصبحت القرى تنظّم منافسات لإضفاء الحيوية على ساحاتهم وعلى مراكز المدن، *Krez Ker*. صعود الزراعة العضوية أعاد الحياة إلى منشآت زراعية قديمة مهجورة، شباب وشابات ممن خاب أملهم من هشاشة الحياة في ضواحي المدن الكبيرة، قرّروا تغيير حيواتهم، فعادوا ورمّموا المنازل القديمة واستخدموا السماد العضوي ورفضوا استخدام البذار الصناعي. يفعلون هذا كلّه دون تبجّح ودون ذلك النضال ذي الطابع الانغلاقي الذي تتميّز به صالونات مناصري البيئة. أياديهم

قاسية، وجوهم لفحتها الشمس والرياح. هم المغامرون الجدد، أبناؤهم يشبهون الولدين اللذين التقيناهما في الماضي، أولاد عمّنا ساكني ضفاف نهر «بلافيه»، والذين يلبسون جلد الخروف ويطيلون شعورهم. بعضهم عاد ليتكلّم بالبروتانيّة (بلكنة مضحكة أحياناً ولكن اللغات الحيّة سمتها التطوّر). ستحيا بروتاني عبرهم.

# نحو الحكم الذاتي؟

الاستفتاء الأخير في اسكوتلندا حول الاستقلال أيقظ أحلاماً قديمة في بروتاني. ماذا لو نحَوْنا باتجاه الحكم الذاتي؟ لقد أصبح ذلك رائجاً، في كورسيكا ومقاطعة الباسك الفرنسية وجزر الأنتيل والريونيون والبولينيزي بات هذا السؤال مطروحاً وبقوّة أحياناً. الأفضلية التي تتمتّع بها بروتاني مقارنة بهذه المستعمرات القديمة هي أنها كانت فعلاً دولة مستقلّة ذات سيادة في الجزء الأكبر من تاريخها (900 عام). للتذكير (وهذا لا تتكلّم عنه كتب التاريخ المدرسية)، لم يفقد البروتانيّون استقلالهم بفعل معاهدة أو استفتاء شعبي. في 28 تموز 1488، يوم القدّيس «سامسون» شفيع بروتاني، واجهت الفرقُ البروتانية بقيادة الدوق «فرانسوا» الثاني، تُعاضدها فرقٌ من متطوّعين باسكيّين ورماة إنكليز، جيشَ ملك فرنسا على الحدود القديمة على مقربة من حصن «سان أوبان دو كورمبيه» بالقرب من رين.

ما وصفه المؤرّخون بالحرب المجنونة كان في الحقيقة معركة كبيرة أودت بحياة خمسة آلاف جندي، وقضت على قسم كبير من نبلاء بروتاني. وقعت هذه المعركة في بقعة تُسمّى إلى اليوم أرض اللقاء، وهي عبارة عن أرض منحدرة ليست ببعيدة عن أرض «أويه». خطأ استراتيجي

بسيط هو السبب في اندحار جيش دوق بروتاني: كان لجنوده السيطرة على أعلى المنحدر، ولكن الشمس كانت في أعينهم. بعد يوم من استماتة في القتال، اضطرّ البروتانيّون إلى الانسحاب والالتجاء إلى الغابة حيث تمّت إبادتهم. أحدثت هذه الهزيمة خرقاً في دفاعات المنطقة أجبرت بعدها حكومة الدوقية، المحاصرة في «رين»، على الاستسلام. بعد وفاة فرانسوا، اضطرّت الدوقة «آن» البالغة من العمر تقريباً اثنَتي عشرة سنة آنذاك إلى الخضوع لملك فرنسا حقناً لدماء شعبها. لقد كانت هي جزءاً من الغنيمة بشكلٍ ما، فقد أُجبرت بعد ذلك بسنتين على الزواج من الملك المنتصر شارل الثامن، والتخلّي، وفقاً للقانون السالي (*loi salique*)، عن سلطتها على أراضيها. ملكة بروتاني الأخيرة كانت ملكة فرنسية متميّزة أيضاً. وفاءً منها للتربية التي تلقّتها من والدها، رحّبت في بلاطها بالفنّانين والأدباء، ومهما قيل عنها، يكفيها أنها عرفت كيف تجنّب بروتاني النهب من قبل المنتصرين. أصبحت في ما بعد رمزاً وأثبتت تعلّقها بمسقط رأسها لمّا طلبت أن يُحفَظ قلبها بعد مماتها في آنية ذهبية ويُدفن في قبر والديها، في «نانت».

خسارة الاستقلال لم تكن تعني تغييراً في نظام الحكم فقط. يمكن الظنّ أنه بالنسبة للسواد الأعظم من البروتانيّين كان الخضوع للحكومة المركزية الفرنسية أمراً لا أهمّية له، فالهوية البروتانية لم تكن مرتبطة بقوّة طبقة النبلاء فيها، كما كانت عليه الحال في الأقاليم الأخرى. لم يكن للفلّاحين والعمّال علاقات مع أسيادهم، فالاسترقاق لم يعد موجوداً، ولكن السياسات الموضوعة في «نانت» و«رين» لم تكن تختصّ بالحياة اليومية لهؤلاء الناس. كانوا على يقين أنهم بروتانيّون، يكرّسون أنفسهم

لقدّيسيهم ويحترمون السلطات الدينية، ولكنهم كانوا ليذهلوا لو علموا بأن لا الدوق ولا الدوقة «آن» كانا يتكلّمان البروتانيّة.

ما تغيّر بالنسبة لهم هو الاقتصاد. فحتى ذلك الوقت وبفعل استقلالها، اختارت بروتاني أن تتعامل تجارياً مع الأمم الأوروبية كافة، وبالأخص إنكلترا وإسبانيا وإيطاليا. كانت بروتاني تصدّر مواد صناعة القوارب والحبال والأشرعة وتستورد النبيذ والعطور. ازدهرت البلدات البروتانية في «فان» و«كامبير» و«لو كرونان» في نهاية العصور الوسيطة. هزيمة «سان أوبان دو كورميه» كانت بمنزلة بداية الانحدار، واضطرّت بروتاني للتخلّي عن استقلالها التجاري والاكتفاء بوضعها كمستعمَرة. ارتكاس التجارة هذا ترافق مع فرض ضرائب ملكيّة، كضريبة الملح والمواد المستوردة. عشية الثورة الفرنسية، كانت هذه المقاطعة المزدهرة في ما سبق قد تحوّلت إلى أفقر منطقة في فرنسا، وبقيت على هذه الحالة حتى العصور الحديثة.

لا يمكن إعادة كتابة التاريخ. إنشاء الاتحاد الأوروبي سمح بالتفكير في توسيع العلاقات التجارية.

لم يساند البروتانيّون في مجملهم النزعات الشعبوية المعادية للوحدة الأوروبية التي تسوّقها الأحزاب المتطرّفة الفرنسية. على الرغم من الاسم الذي يحمله مؤسّسه إلا أنّ حزب الجبهة الوطنية لم يحظَ بتعاطف. طروحاته العنصرية كارهة الأجانب رُفضت على الرغم من الضائقة الاقتصادية. لبروتاني في الواقع تقاليد عريقة في الضيافة والانفتاح على الآخر، ربما كان ذلك بسبب أن الازدراع(*) والتزاوج الخارجي يشكّلان

(*) عملية أخذ جزء أو نسيج حيّ وزراعته في جزء آخر من النبات أو في نبات آخر. [م]

جزءاً من شيفرتها الجينية. هي واحدة من المناطق النادرة في فرنسا التي تدعم القضية الفلسطينية (هنالك شارع اسمه فلسطين في «كامبير»)، وتؤكّد على عدالة نضال الطوارق في سبيل حرّيتهم. أما في السياسة الداخلية فإنها تبدو متحفّظة. لا يثير الاستقلال حماسة كبيرة، ربما لأن هذا النقاش بات من الماضي، ولأن البروتانيّين متعلّقون بكلّ جوارحهم بمبدأ الجمهورية. وحدها الاستقلالية الضرائبية والاقتصادية ستسمح لبروتاني بشغل المكانة التي تستحقّ. أيمكن السير في هذا الطريق؟ وضعها كأمة خاضعة لا يتناسب وروح المغامرة. أواصر التبعية في بروتاني، كما في كلّ المقاطعات التي ضمّتها الحكومة المركزية، صعبة الحلّ. يمكن أن يحلموا بها كتاريخٍ موازٍ: أن يعود الشعب الذي يتشارك تاريخاً واحداً إلى الاتحاد تحت راية واحدة من جديد ويعمل على إيجاد حلوله الخاصة لمشكلاته الحالية. ليس ذلك حبّاً بالقومية، بالمعنى الضيّق للكلمة الذي يعني منح أفضلية عرقية لكل أولئك المتحدّرين في أصولهم من بروتاني، ولكنّه يعني نوعاً من الحرية في إدارة الخزينة واتخاذ القرارات في ما يخصّ الالتزامات والمعاهدات مع الجيران، وتطوير برامج اجتماعية ورسم مستقبلها البيئي والثقافي.

لم يكن الكاتب البروتاني «ميشيل مورت» صاحب رواية «السجن البحري» الرائعة يؤمن بالاستقلال. كان يقول لي إن ما تفتقد له بروتاني، من منظوره الشخصي، هو الآداب. لم يكن يقيم أيّ اعتبار للشعر الغنائي البروتاني للشاعر «تيودور هيرسارت دو لا فيلماركيه»، ولا للكتّاب المعاصرين مثل «لويس غويو»، «بير جاكيز هيليياس»، و«آن بوليه». ولكنه كان يعترف في الوقت نفسه بأنه لا يمكن له أن يستمع إلى النشيد الوطني

(المترجم عن الغاليّة)، بروتاني أرض أسلافي القديمة، الذي كان يُعزف أثناء المناسبات الرسمية دون أن تخالجه مشاعر عميقة. كان يحبّ أيضاً *Gwenn ha du* العلم المزيّن بخطوطٍ تسعة بيضاء وسوداء، والذي يرمز إلى مقاطعات بروتاني ويحمل في زاويته شعار الدوقية: ذيول القاقم. كانت تلك ألوان البيرق الذي خفق قبل 500 عام، قبل معركة «سان توبان دو كروميه» التراجيدية.

# بطل من بروتاني

ككثيرين من أبناء جيلي، نشأت مع الوهم أن بروتاني كانت بلد البحار. ربما اعتقدنا أن أبطال بروتاني الحقيقيّين كانوا بحّارة مشهورين وشجعاناً أمثال «دوسورفيل»، و«دوغاي توروان»، و«كيرغولون»، و«هوان كيرماديك» وآخرين، حتى ولو كان بعضهم ليس أهلاً للاحترام على غرار «روبرت سوركوف» الذي بنى ثروته من تجارة الرقيق. بروتاني معروفة بتأليهها للبحر ولبحّارتها المتنسّكين مثل «إيزابيل أوتيسيه» و«إيريك تابارلي». خاب أملنا أنا وأخي حين علمنا أن أجدادنا لم يكونوا لا بحّارة ولا صيّادين، بل مزارعين بسيطين من منطقة «موربيهان»، متعلّقين بهذه الأرض الجرداء التي كانوا يزرعونها بالحبوب، إضافةً إلى تربيتهم الماشية. المكان الذي سكنوه منذ الأزل، منذ القرن السادس، حين دفع الغزو الساكسوني بالبروتانيّين خارج إنكلترا ورمى بهم في منطقة «أرموريك» ليس معتبراً ولا رومانسياً. هو عبارة عن ريف أخضر ومظلم تخترقه الوديان الضيّقة، حيث المزارع تشبه الحصون، وأفران الخبز تشبه أكواخاً قبانية حجرية. الناس الذين يعيشون فيها لا تربطهم بالبحر أيّ علاقة، بل إنهم تجاهلوه على

مدى أجيال طويلة. لا بدّ أن ذاكرة خروجهم عبر بحر الشمال، على متن مراكب بمجاذيف تحملهم هم وأولادهم وماشيتهم، قتلت روح المغامرة في أنفسهم.

في طفولتي، في زمن «سانت مارين»، كنت قد اخترت بطلي الخاص، صائد القريدس البسيط الذي كان أيضاً مغامراً ورسّاماً أيام الآحاد. لم يكن يتحدّث مطلقاً عن رحلاته. أذكر قوة يدَيه اللتين اشتدّ عزمهما لفرط التجديف وشدّ الحبال لرفع أقفاص الصيد. كما أذكر دماثة زوجته «كاثرين» التي دعمته وساندته كلّ حياته.

الآن وبعد مرور كلّ هذه السنوات، أريد التحدّث عن بطل آخر، رجل يعمل في الأرض يتحدّر من سلالة طويلة من المزارعين البروتانيّين أنتمي إليها اسمه «هيرفي». هو من جيلي نفسه وعايش الأحداث نفسها التي عشتها: نهاية الحرب العالمية الثانية، وحرب الجزائر. من خلال حديثي معه، اكتشفت شيئاً فشيئاً بروتاني أخرى لم أعرفها قبلاً.

أذكر جولةً قمت بها مع والدي، حين كنت في العاشرة، على الساحل الشمالي لمنطقة «كورنواي» في «دوارنينز». أذكر جيّداً النزول باتجاه البحر والوصول إلى المرفأ والحيد الأسمنتي الطويل والأبنية المخصّصة للمسامك والكونسروة. أذكر مرافئ الصيد في الجنوب: «ليسكونيل»، «لوغيلفينيك»، «لوكتودي»، لم تكن وجهاتٍ سياحية في ذلك الوقت. كان بالإمكان رؤية مراكب الصيد والصيّادين الذين يرتدون سراويل حمراء وقبّعات البحّارة. مع ذلك، شكّل المجيء إلى «دوارنينز» صدمةً لي، ربما

لأن هذه المدينة كانت واجهتها شمالية الاتجاه، وكان كلّ شيء فيها جليدياً وعدائياً في شوارعها الضيّقة وأرصفتها البحرية، وحتى لون المياه فيها. الصدمة أتت بشكل رئيسي من السكّان، هذا الجمع المتراصّ، الغامض الذي يلبس سترات داكنة اللون ويعتمر قبّعات البحّارة. لقد كانوا عمّالاً أكثر منهم صيّادين، تنبعث منهم ومن مدينتهم روح القسوة والمقاومة. بالطبع كانوا شيوعيّين، وبذلك لا أقصد أنهم كانوا يشبهون اليساريين الباريسيّين المتأنّقين، بل يشبهون المناضلين الصامتين والعنيدين، كما سيظهرون في السينما الواقعية الإيطالية، في أفلام دوسيكا De Sica وفيلّيني Fellini. الجمع على الشاطئ في «الأرض تهتزّ» لفيسكونتي Visconti، «روما مدينة منفتحة» لروسليني Rossellini. حتى نسوة «دوارنينز» كنّ يشبهونهن، فقد كنّ يلبسن أطقمهن السوداء ويعتمرن قلنسوات صغيرة، هيئاتهن تدلّ على الانغلاق والقسوة. كنّ يعملن في معامل «شانسوريل» و«بوتي نافير» في تفريغ الأسماك من أحشائها وتوضيبها في علب صغيرة. اختفى كلّ هذا في غضون عشرين عاماً. توقّف الصيد وأُغلقت المعامل. دُهنت المنازل الرمادية بالألوان وبات الناس يستمعون لموسيقا الجاز في حانات «ساحة جهنّم» (لم يعد يتعارك الناس فيها بالسكاكين كما كان يروي «جورج بيروس»).

افتُتحت محالّ لبيع التذكارات والبيتزا، وتحوّل المرفأ إلى متحف. ما زالت مراكب الصيد ترسو في «دوارنينز»، ولكنّها في معظمها مراكب – معامل قادمة من إيرلندا أو البرتغال، تتوقّف لإفراغ صيدها في صناديق الثلج، الذي ستنقله الشاحنات المبرّدة إلى أصقاع أوروبا كافّة.

ليست النوستالجيا ما دفعني لاستحضار هذه القصة، ولأرتّب عبرها تسلسل أحداث حياة أحدهم، بل السحر القديم بغية رؤيته يظهر من خلال الانعكاس الخادع للحاضر. «هيرفي»، هذا الرجل الذي نصّبته بطلي الخاص يشبه تماماً أسلافي البعيدين الذين سكنوا ضفاف نهر «بلافيه». أُنصت إليه وهو يتحدّث عن طفولته في مزرعة على مقربة من البحر في بلدة «بولان». يتحدّث متردّداً في اختيار كلماته، فقد كان عليه أن يترجمها من البروتانية لغته الأم. يتحدّث عن قسوة الشتاء والعمل في الحقول والصعوبات وشحّ النقود. يتحدّث عنها كما لو كانت سنوات من السعادة، فلقد كانوا أحراراً، على العكس من الصيّادين والعمّال في «دوارنينز». يشعّ وجهه نوراً حين يتكلّم عن حفلات طفولته: كانت تلك فترات سعادة عارمة، كنّا نشرب ونتسلّى ونتشارك الطعام مع العائلة والجيران (لحم الخنزير المشويّ والفطائر المحلّاة وعصير التفاح الساخن). كان الزواج مكلفاً، ولتأمين المبالغ الضرورية يجب على المزارع أن يبيع قطعة أرض. ضربات القدر كانت كثيرة هي أيضاً وتستوجب إيجاد المال اللازم للاستطباب. كلّ هذا من الماضي، ولكن كثيرين من أبناء جيلي ما زالوا يذكرونه. كان هنالك أيضاً العواصف *Bar-amzel*. أراني «هيرفي» الصخرة الكبيرة المتوازنة على رأس «جومان» مقابل البحر، المسمّاة *Karreg-sonn*، الصخرة الشادية، التي ترتجّ منبئةً بغرق سفينة. لها تعود أصول أسطورة مُغرقي السفن التي سمعتها مراراً وتكراراً حين كنت يافعاً. كانت قصة الفوانيس المعلّقة على قرون الماعز على طول الساحل لخداع البحّارة تثير ضحكه. أحاولتَ يوماً أن تربط فانوساً على معزاة في يوم عاصف؟ حين كان يرنّ الحجر، يندفع السكّان إلى المنحدر بحثاً عمّا

جلبته العاصفة لهم. إحدى حوادث الغَرق التي بقيت في ذاكرته جلبت إلى الشاطئ الصخري برميل نبيذٍ ضخماً صار سكّان الجوار يأتونه ليلاً ليملؤوا زجاجاتهم منه بعيداً عن عيون الجمارك.

أحبّ الاستماع إلى «هيرفي» وهو يتحدّث عن سحر هذا المكان. شيءٌ ما من غموض بروتاني ينتقل هنا من جيل إلى آخر ويبقى حيّاً على الرغم من الحداثة. يتحقّق ذلك عبر بعض الرجال والسيّدات من ورثة هذه التقاليد القديمة، ربما لأنهم ربيبو الأرض والريح والفصول وليس المدارس البلدية. كان «هيرفي»، مسلّحاً بعصا متشعّبة النهاية، قادراً على اكتشاف المياه الجوفية واختيار المكان الأنسب لحفر الآبار. لقد ورث هذه المَلَكة عن جدّته التي كانت طبيبة تقليدية متخصّصة بنزع الثآليل ومعالجة الأمراض الجلدية. حافظ «هيرفي» على أواصر مع الطبيعة جعلته قادراً على استشعار تقلّبات الطقس وعلامات حدوث الأعاصير. يتحدّث إلى البحر والأفق مثل أبطال رواية ستيفنسون. جمال الطبيعة يحرّك مشاعره مثل عندما تتفتّح أزهار الخلنج، أو حين يستمع إلى موسيقا الجداول بعد هطول المطر. التحدّث باللغة البروتانية أو الحلم بمستقبل سياسي لبروتاني لا يثيران اهتمامه. انتماؤه إلى هذه الأرض طبيعي لا يشوبه غرور أو شكوى. حقيقيّ في انتمائه مثل الصخور والسنديان واليحمور وطيور النورس، أو حتى الأرانب التي يحتفظ لها بجزء من محصوله. بفضل عمله وبراعة زوجته، ماري آنج، أصبح المنزل الذي تقاعدا فيه واحةً غنّاء في وسط البرّيّة بعد سنوات من العمل الشاقّ.

إليهما أهدي هذه القصة التي هي ليست اعترافات أو ألبوم ذكريات.

إنها ملحمة بروتانية عنيدة ورتيبة تشبه تلك التي تنشدها الصخرة أثناء العواصف، أو التي أتخيّل أن أجدادي قد ردّدوها وهم يضربون الأرض بأرجلهم في حرارة الحفلات الليلية، وفي الخلفية صوت القربة والمزمار يحمله الريح.

# الطفل والحرب

بدأت الحرب العالمية الثانية بالنسبة لفرنسا في 3 أيلول 1939. وُلدتُ في نيس في 13 نيسان 1940. السنوات الخمس الأولى من حياتي عشتها في الحرب. بالنسبة لي، هذه الحرب -كلّ الحروب- لا يمكن لها أن تكون حدثاً تاريخياً. لا أستطيع إدراكها كواقعة أستطيع تحليل أسبابها واستنتاج عواقبها. لا يمكنني التحدّث عنها بموضوعية أو ربطها بواقع سياسي وأخلاقي، أو أن أجعل منها بيّنةً وأحلّل طابعها المحتوم وأستخلص العبر الفلسفية منها. حين أتحدّث عنها، يدهمني دفقٌ من المشاعر والأحاسيس التي تحمل الطفل بين يوم ولادته وبداية ذاكرته الواعية في عمر الخمس سنوات أو الستّ سنوات.

ليس لي الرغبة في كتابة ذكريات الطفولة. آخرون كتبوها بشكل أفضل مما أنا قادر عليه. لقد اعتمدت بشيء من الغرور شعار الشاعر «إيزيدور دوكاس»، كونت «لوتريامون»، الذي يقول: «لن أكتب ذكريات».

كيف يمكن التحدّث عنها إذاً؟ ربما بالقول ببساطة إن الحرب هي أسوأ الأحداث التي يمكن لها أن تصيب طفلاً. الحياة الحديثة عوّدتنا على صور الدمار. نراها في كلّ لحظة، في الأخبار المتلفزة مع تناول طعام الغداء، أو في التحقيقات الكبيرة. نراها على صفحات الجرائد الأولى وعلى أغلفة المجلّات. صور صادمة وعنيفة. فتاة صغيرة تركض عارية ومحاطة بالمارّة على طريق هرباً من قنابل نابالم عسكري أميركي غير عابئ

يجلس في مقصورة طائرته على ارتفاع ثلاثة آلاف متر. صورة بالأبيض والأسود التقطها مصوّرٌ هاوٍ بعد قصف برلين تُظهر أطفالاً مهلهلي الملبس ينبعث الدخان من الخرائب خلفهم. في صور الحرب هذه، ليس هنالك من أخيار وأشرار. ليس هنالك من أعداء. هنالك الأطفال من جهة، وعلى الجهة الأخرى، آلة الحرب العمياء والشرسة التي تديرها أيدي البالغين، بأسلحتهم ولباسهم الموحّد مما يجعل تحديد هويّتهم صعباً.

لا يعرف الأطفال ماهية الحرب. لا أذكر أني سمعت هذه الكلمة طوال الفترة التي استمرّت فيها، ولا حتى في السنوات التي تبعتها. بالنسبة لهم، كلّ ما يحصل طبيعي. ليس لديهم أدنى فكرة أن حياتهم يمكن لها أن تكون مختلفة. ليس لديهم أيّ فكرة لأن البالغين في محيطهم لا يتحدّثون عنها إلا لقول أشياء غامضة من قبيل: «يقال إنّ...» و«يبدو أنّ...»، كي لا يثيروا الذعر. ولكن الصمت مروّع أكثر بلا شكّ. لا أذكر أني سمعت هذه الكلمة، ولكنّي أذكر أنّي كنت مدركاً أن شيئاً ما يحصل. في مكانٍ آخر، في الخارج، على الطريق. لم نكن نستطيع الخروج ولا النظر من خلال النوافذ. كان هنالك خطرٌ مُحدِق، وحظرٌ، حاضر ولا مرئيّ. كان يجب البقاء خلف الجدران. أكان ذلك مختلفاً عن أيّ طفولة في وقت السلم؟ أجهل الجواب عن هذا السؤال. ربما. أستطيع أن أتخيّل الخوف الخارجي، ليس الخوف الذي نشعر به لدى قدوم عاصفة عنيفة، ولا ذلك الذي يتملّكنا لدى حصول شيء غير متوقّع، كأن يطرق أحدهم الباب ويطلق التهديد والوعيد. أو الخوف الذي تبثّه في قلوب الأطفال قصصُ الشياطين أو الساحرات، أو تلك التي تجوب فيها الذئاب مختلف

الأصقاع، أو التي تصف أكواخ الغيلان والساحرات في الغابة. يستطيع الأطفال التميز بين ما هو خيالي وما هو واقعي. يحبّون تلك القصص لأنه من اللذيذ أحياناً الشعور بالخوف. أما بالنسبة للطفل الذي كنت في الحرب، فإنها لم تكن قصص ذئاب وسحرة، لقد كان خوفاً بلا وجه ولا اسم ولا قصة. لم يكن لذيذاً، لم يكن كذلك إطلاقاً. الذكرى الأولى التي انطبعت في ذاكرتي هي ذكرى حدث عنيف يعود إلى نهاية الحرب وليس إلى بدايتها. هي ذكرى من القوة بمكان أني لا أستطيع الشكّ في أنها قد حدثت حقّاً. أنا في حمّام شقّة جدّتي في الطابق السادس من بناء يقع على بولفار «كارنو» في نيس بالقرب من المرفأ. كان الحمّام مزوّداً بالماء الساخن عن طريق سخّان مياه يعمل على الغاز الطبيعي. أشمّ رائحة الغاز لأن جهاز الإشعال كان يتأخر، وللغاز رائحة قوية لاذعة أعرفها جيّداً. السخّان يعمل وأظنّ أن جدّتي تتحضّر للاستحمام. أظن أننا في نهاية ما قبل الظهر لأنها لم تكن تستيقظ باكراً. للحمّام عندها طقوس. إنها الحرب ولكن الغاز ما زال يصل إلى الشقّة. كنّا محشورين نوعاً ما، أنا وجدّتي وجدّي وأخي وأمي، في هذه الشقّة التي تعلوها سقيفة. كنا قد تركنا الساحل في السنة الفائتة والتجأنا إلى المنطقة الجبلية، ثم عدنا إلى نيس، ربما حتى تجمع جدّتي نقوداً وموادّ غذائية وثياباً. نيس محتلّة من الإيطاليين ولكن الجيش الألماني كان في طريقه إليها. كلّ ذلك لا أعرفه ولكني أستطيع استنتاجه من الوقائع التاريخية. صدمة القنبلة كانت رهيبة. لا أذكر الصوت ولكنّي أذكر موجة الصدمة التي هزّت أرض الحمّام ورمتني على الأرض، والصرخة التي أطلقتها حنجرتي. حدث ذلك كلّه في وقتٍ واحد، الصدمة واهتزاز الأرض والسقوط والصراخ. في ما بعد،

حين أصبحت بالغاً، شهدتُ هزّةً أرضية كبيرة في مكسيكو عام 1985. إنه شعور غريب. أحسست أن الأرض أصبحت سائلة تحت قدمي، وأن لا شيء مؤكّد، وأن كلّ شيء ممكن له أن يختفي دون سابق إنذار. يوجد مع ذلك اختلاف بين الحدثين: حين انفجرت القنبلة، كنت لا أزال طفلاً لا يستطيع التعبير عن مشاعره بالكلمات. لم أفكّر: «هاك، هذه قنبلة!»، كما فعلت في المكسيك: «هذه هزّة أرضية بلا شكّ». لم أفكّر في أيّ شيء. اختزلتني الصرخة كليّاً. مع محاولتي التذكّر، يتولّد لي الانطباع أنها كانت صرخة حادّةً جدّاً لدرجة أنه لا يمكن لها أن تكون خارجة من حلقي، بل من العالم أجمع، امتزجت مع صوت الانفجار الذي ضغط طبلتَيْ أذنَيّ، واتّحدت مع جسدي. كان جسدي هو من يصرخ وليس حنجرتي. لم أختر هذه الصرخة. لم أختر هذه اللحظة. هذه هي الحرب بالنسبة لطفل. الطفل لم يختر شيئاً على الإطلاق.

سقطت القنبلة في حديقة بناء جدّتي، حطّمت زجاج نوافذ الحيّ، صدّعت جدران بيت الدرج، وأطفأت سخّان المياه. لست متيقّناً، ولكني أتخيّل أن جدّتي قد هرعت إلى الحمّام لترى ما إن كنت على ما يرام ولم تطلْني شظايا الزجاج، ولتقطع الغاز أيضاً، فلا بدّ أن ضغط الانفجار قد أطفأ الشعلة. أظن أنها قطعت الغاز أوّلاً ومن ثم اهتمّت بي. البالغون يتصرّفون هكذا. إنهم منطقيّون، فالحرب شأنهم ويعرفون كلّ وصفاتها. يعرفون كيفية التصرّف تحت القصف أو عند حدوث هزّة أرضية. عدم الفزع. التصرّفات المجدية. جدّتي امرأة قوية ولا تفزع بسهولة. لقد عاشت الحرب العالمية الأولى، تلك الفترة الرهيبة والعصيبة، التي تعرّفت

فيها إلى صوت قذائف أكبر مدفع في العالم -كان الألمان قد نصبوه على الضفة الجنوبية لنهر المارن- وهي تعبر السماء باتجاه باريس.

القنبلة التي سقطت في حديقة البناء أحدثت صوت انفجار قويّ ومرعب حطّم زجاج النوافذ كافةً. كانت قنبلة تزن 277 كيلوغراماً. في الحروب اليوم، يُسقط سلاح الطيران الأميركي (الإنكليزي أو الفرنسي أو أيّ دولة في العالم) قنابل تزن 2000 كيلوغرام على المدنيّين. أفكّر دوماً بالأطفال المعرّضين للقصف بهذه القنابل في العراق وأفغانستان وسورية وليبيا وفلسطين ولبنان. أطفال، كما كنت أنا، في حمّام جدّتهم يراقبون الماء يملأ حوض الاستحمام. أو بكلّ بساطة يلعبون بالشاحنات الصغيرة أو بدمية أو بكوب بلاستيكي، أو أولئك الذين على الشرفات يراقبون أمهاتهم ينشرن الغسيل. إن كانت القنبلة الكندية التي دكّت طبلتَي أذنيّ قد سبّبت كلّ هذه الأضرار، فما الذكريات التي ستخلّفها في نفوس الأطفال هذه القنابل الحديثة، الثقيلة والفعّالة جدّاً، المصمّمة لتخترق الأسمنت وتصيب العدوّ في مقتل ولو كان في الطابق الثالث تحت الأرض؟ كيف لهم أن يبرؤوا منها؟ حتى وإن لم تصبهم، حتى وإن لم يسمعوا صوت انفجار واحد ولا عشرة ولا عشرين، حتى وإن كانوا على علمٍ بما يحصل، إذ قيل لهم: «إنها الحرب!». كيف لهم أن يشفوا منها؟

هذه القنبلة الكندية (لست متأكّداً تماماً ولكنّي خمّنت في ما بعد أنه من الممكن لها أن تكون كندية لأن سلاح الجوّ الكندي كان قد بدأ اجتياحه لفرنسا بالقصف، وخصوصاً في المناطق الساحلية مثل «سان مالو»

و«بريست» و«دنكيرك»، وأيضاً في «تولون» و«مارسيليا» و«نيس») شكّلت بداية العنف بالنسبة لي. حتى ذلك الوقت، كان سكّان «نيس» في منأى عن الحرب نسبياً. تمثّل نيس الشاطئ الأزرق، الشمس، مناطق الاصطياف، والسيّدات الحسناوات اللاتي يتمشّين على الكورنيش البحري متدثّرات بمعاطف فرو المِنك. حتى ذلك الوقت، كانت الحرب في مكانٍ آخر، على الطرف الآخر من فرنسا، على الجبهة، على الجانب السيّئ من خط الفصل، الجزء الذي ضمّته ألمانيا. جهة الجنوب -«نيس» و«كان» و«أنتيب» حتى «تولون» مروراً بـ«سان تروبيه» و«راماتويل»- مثّلت الجانب الحميد من النزاع، حيث التجأ الفنّانون الأثرياء والكتّاب والسينمائيون. يُرى على الصور العائدة لفترة الأربعينيات السادة الأنيقين والسيّدات الجميلات يتمشّون على طول المتنزّه الإنكليزي في نيس. كان المصوّرون الجوّالون يكسبون رزقهم بالتقاط الصور لهؤلاء الناس السعداء الأثرياء. لم أرَ أيّ صورة لجدّتي، ولكن كان يمكن لها أن تكون من هذه الطبقة المخملية. إنها امرأة حسناء تتبع موضة سنة 1900، أي ثوباً طويلاً وقبّعة جرسية ومعطفاً من الفرو وحذاءً بكعبٍ عالٍ أسود. قبيل الحرب بقليل، قرّرت هي وزوجها الاستقرار في نيس بعد أن خسروا كلّ ما يملكونه في باريس – ليس بسبب الهزيمة، ولكن بسبب سياسات الجبهة الشعبية وأزمة 1931 المالية، وتمديد تأجيل دفع الإيجارات الإلزامي. لم يتوقّعا ذلك وكانا قد استدانا بشكلٍ كبير من المصارف. ليس للمصارف أحاسيس ولا مشاعر. طلبوا منهما تسديد الديون، ولكن الإيجارات المحصّلة لم تسمح لهم بتسديد قيمة العمولات. اضطرّوا للبيع بخسارة والرحيل. اختارت جدّتي، كالكثير من المفلسين، نيس، لشمسها وبحرها ولأن الإيجارات فيها كانت

لا تزال مقبولة. زد على ذلك أن جدّي الموريشيسي قد شبع من باريس حيث الشمس، كما كان يقول، تشبه قرص شمع ختم الرسائل.

إذاً هي الحرب. ولكن في نيس كانت تشبه حرباً في أوبرا غنائية. جيش الاحتلال كان إيطالياً والإيطاليون لطفاء. الكلّ يتفقون على هذا. لديهم لباسهم الموحّد الجميل وقبّعاتهم المزيّنة بريش الديكة. سحرت والدتي، الفتاة الشقراء الجميلة، الإيطاليين. كانوا يحملون لها مشترياتها حين تصعد بولفار «كارنو». كانوا لبِقين. حتى حين كنّا نتوجّه إلى الجبال لم نكن نشعر أننا نعيش في خطر. الطرقات كانت مفتوحة وبالإمكان التنقّل جيئةً وذهاباً.

في هذا الجوّ العام، رمت الطائرة الكندية قنبلتها. كانت تستهدف مرافق المرفأ من رصيف بحري ورافعات والمدافع التي نصبها الألمان على الساحل. أخطأت القنبلة هدفها إذ انحرفت عن مسارها وسقطت في حديقة بناء جدّتي. قلت إن القنبلة شكّلت بداية العنف لأن سقوطها كان يشبه قرع طبلٍ أو ناقوس، أو إطلاق رصاصة تحذيرية جاءت لتقول لوالدتي وجدّتي ولكلّ الناس مثلنا: «لقد حان الوقت. باتت الحرب هنا ولم يعد من المُجدي التظاهر بأنها ما زالت بعيدة».

لئن قارنتها بقرع طبل (إذا أردنا توخّي الدقّة كان صوت القنبلة يشبه صوت الرعد)، فذلك لأقول حرفياً إنّ دويّها قد غيّر شيئاً في حيواتنا (جدّتي ووالدتي والأطفال). حتى ذلك الوقت كنا نعيش في وهم الاعتقاد بأننا، بتجاوزنا خطّ الفصل والاستقرار في نيس، تجاوزنا الحرب.

وصل سعير الحرب مع ذلك إلى المدينة. بدأ الإنكليز والأميركان والكنديّون تنفيذ مخططهم باجتياح فرنسا. عبَر الألمان خطّ الفصل وقرّروا أن يديروا أمور الجنوب بأنفسهم. لم يكونوا يثقون بالإيطاليين. أرادوا أن يُخضعوا كل الذين فرّوا نحو الشمس من منشقّين وأغنياء. أرادوا أن يتخلّصوا من اليهود. أما نحن؟

لسنا يهوداً ولسنا أغنياء. ما من خوف علينا. ولكننا مواطنون بريطانيون من جهة والدي وجدي. موريشيوس في ذلك الوقت كانت جزءاً من الإمبراطورية البريطانية. أي إننا كنا ننتمي إلى البلد الأشدّ عدائية للألمان. لدى ولادتي طلب والدي من والدتي تسجيلي في القنصلية الأميركية، لعدم وجود ممثلية بريطانية في نيس. القنصل الأميركي كان إيرلندياً اسمه «أوجيلفي». يعرف والدي ووالدتي وهو من حذّرها: «الألمان قادمون. عليكم بالرحيل والاختباء في مكانٍ ما. يمكن لهم أن يرحّلوكم إلى معسكرات الاعتقال، أنت وكلّ عائلتك!». يا لها من مفارقة إن أخذنا بعين الاعتبار أن جدّتي والكثير من الفرنسيين في ذلك الوقت كانوا يكرهون الإنكليز. الألمان لا يهتمّون بمثل هذه التفاصيل. كانوا ليُرحّلوا الجميع إلى معسكرات الاعتقال.

التجأنا إلى قرية «روكبيلير» الصغيرة الواقعة في وادي «فيزوبي» في ريف نيس. لماذا اختارت والدتي هذه القرية؟ أكان لهذا الخيار علاقة بقرية «سان مارتان» الواقعة هي أيضاً في وادي «فيزونبي» والتي استقبلت في نيسان 1943 قسماً من الجالية اليهودية؟ هل كان سكّان هاتين القريتين من المتعاطفين معهم؟ ولا سيما أنهم قد أظهروا لاحقاً كرماً فائقاً مع

المهاجرين غير الشرعيين القادمين من إيطاليا. استقبال النازحين في الوقت الذي يدخل فيه الجيش الألماني مقاطعة «بروفانس» كان دليلاً على شجاعة وعزم كبيرين. سكّان هاتين القريتين، «سان مارتان» و«روكبيلير»، كانوا يعرّضون أنفسهم بذلك لخطر الانتقام، إذ كان ممكناً لهم أن يساقوا إلى معسكرات الإبادة هم أيضاً. أكثر ما يميّز قريتَي وادي «فيزوبي» هو حالة التضامن التامّة. لم يكن هنالك من معارضة أو من وشاية. كلّ السكّان من دون استثناء دعموا اللاجئين. العائلة التي استقبلتنا في «روكبيلير» خصّصت الطابق الأول من المنزل، الذي استُخدم طابقه الأرضي مخزناً، لاستقبال عائلة النازحين هذه المؤلّفة من سيّدتين ورجل عجوز وطفلين صغيرين. بريطانيون أعداء المحتل. في «سان مارتان» استقبل السكّان العائلات اليهودية وأسكنوهم منازلهم، وساعدوهم على العيش على الرغم من الضائقة. نحن مدينون بلا شك لبطولتهم التي لم تشُبها شائبة أو تبجّح.

الأطفال لم يكونوا بالطبع على دراية بما يحصل من حولهم. جرى الانتقال بواسطة شاحنة، فمن غير الوارد سلوك الطرق الجبلية بسيارة جدّتي أو ما تبقّى من مجدها، هي من نوع «دو ديون بوتون» صفراء اللون التي يمكن لها أن تثير شبهات الجواسيس على الطريق. في مثل هذه الظروف، ماذا يجب القول للأطفال؟ نحن ذاهبون في رحلة، في عطلة؟ لم نترك عنواناً خلفنا فقد كان ذلك يهدّد سلامتنا. والدي الذي يبعد عنا مسافة ثمانية آلاف كيلومتر لم يكن على دراية بشيء مما يحصل معنا. أو ربما كانت القنوات الدبلوماسية الأميركية، عبر السيّد «أوجيلفي» قد

أخطرته دون تحديد مكان اللجوء. عائلتك في أمان. أتلك كانت اللحظة التي فكّر فيها في ملاقاتنا في فرنسا ليساعدنا في الوصول إلى إنكلترا؟ قطع النيجر شمالاً حتى «كانو» حيث استقل شاحنة عبرت الصحراء وأوصلته إلى مدينة الجزائر أملاً في الوصول إلى جنوب فرنسا عبر البحر. لكنه اصطدم مع ضابط من قوّات فرنسا الحرة المرابطة في شمال إفريقيا رفض السماح له بالعبور بذريعة أنه إنكليزي والإنكليز أغرقوا الأسطول الفرنسي في «ميرس الكبير». ربما كان هذا الرفض هو الذي حفّز والدتي وجدّتي في أخذ قرار اللجوء إلى ريف نيس هرباً من الألمان. في فرنسا المهزومة سنة 1940 لم يعد هنالك من مكان للتضامن أو القوانين أو الكرامة. كان الوقت للانتقام والمساومات. أغشت الأحقاد القديمة العيون. أولئك الذين لا يزال بإمكانهم فعل شيءٍ ما، الانتفاض وحمل السلاح، لم يعودوا يميّزون بين العدوّ والصديق. عوضاً عن مساعدة الإنكليز، اصطفّوا مع الغازي وساعدوه، ربما كان هذا أحد أسباب الهزيمة 

هل بإمكاني القول كما في بداية رواية «الشيطان في الجسد» لريمون راديغيه إنّ الحرب كانت بالنسبة لي (بالنسبة للأطفال) عبارة عن عطلة طويلة امتدّت لأربع سنوات؟ لقد كنّا صغاراً جدّاً لنتخيّل الفرصة التي مثّلتها الحرب بالنسبة للمراهقين أن يُمسوا الرجال الوحيدين المتبقّين. الحقّ يقال إننا كنا في بلد لم يعد فيه فعلياً سوى النساء، فالرجال كانوا إما أطفالاً وإما عجزة. أغيّرَ ذلك بالنسبة لنا أيّ شيء؟

نشأت في سنوات حياتي الأولى دون أبٍ، فقد كان يعمل طبيباً في إفريقيا الاستوائية. كنا نعلم أنه موجود، فقد كان لوالدتنا طقسٌ يوميّ تدعونا

فيه مساءً للصلاة لوالدنا الذي يذوب شوقاً للُقيانا. كان ذلك تجريدياً شيئاً ما. هذا الأب يمكن أن يكون أيضاً «بابا نويل». لم يكن يكتب لنا أو يرسل صوراً. يمكن له أن يكون في السجن أو غير موجود على الإطلاق. أكنّا نفتقد ذلك؟ كيف لي أن أعلم. أيمكن أن نفتقد وجود شخص لا نعرفه؟

قضائي للسنوات الأولى من حياتي محاطاً بالنساء لا بدّ أنه غيّر الفكرة التي كان يمكن لي أن أكوّنها عن الحرب. حتى اليوم ومع علمنا بكلفة هذه الفترة بالأرواح والأموال والموارد، إلا أن الحرب ما تزال تحظى بنوعٍ من النبالة في العقل الجمعي لمجتمعنا. نُشيد ببطولة بعض الأشخاص ودهاء بعضهم الآخر، وبعبقرية القادة، وبمعدن الرجال الأصيل الذي كشفته هذه السنوات الرهيبة. لا أحد يتحدّث عن النساء ولا عن الأطفال. إن تحدّثوا، فذلك بغية التأسّف على الخسائر البشرية والمجازر والفظائع التي طالت المدنيّين. اجتُرحت كلمة جديدة مؤخراً للتعبير عن ذلك: «أضرار جانبية». كلمة تلخّص العقلية السائدة: النساء والأطفال عناصر جانبية في الحروب. تُحصى أعداد جرحاهم وقتلاهم كما تُحصى أعداد الماشية النافقة أو الأبنية المدمّرة أو احتياطات الذهب والمواد الغذائية المنهوبة. ليسوا ضحايا. هم «أضرار». لن يكونوا أبداً أبطالاً. الأبطال، كما قال راوي «إلى إسميه – مع الحب والبؤس»، هذه القصة القصيرة الرائعة لجيروم دافيد سالينجر، يجب البحث عنهم بين الأسماء الكبيرة، على غرار همينغواي الذي قرع الطبول ليعلن انخراطه مع الضبّاط في إنكلترا مثيراً دهشة الجنود الصغار.

عيش الحرب مُحاطاً بالنساء كان أمراً مقلقاً ووادعاً. مقلقاً لأن النساء (حتى القويّات منهن كما هي حال جدتي) لم يكن لهنّ أيّ قدرة

على التحكّم بما يحصل في الخارج، خضعن للحرب كما كنّ يخضعن لسلطة الرجل المطلقة في ذلك الزمن. بالتأكيد لم أكن أدرك ذلك، ولكن الأطفال، حتى اليافعين منهم، يكتشفون ما يخفيه الكبار ويشعرون غريزيّاً عندما يُكذَب عليهم. كان هنالك تهديدٌ محدق ولكن من أين كان آتياً؟ من الخارج بكلّ تأكيد، لأنه يجب تغطية النوافذ بالورق للتعتيم؛ لأنه لم يكن مسموحاً بالخروج إلا في ساعاتٍ محدّدة لمرافقة والدتي وجدّتي إلى مركز القرية لتبضّع اللحوم والحليب والخضراوات. من الخارج لأن الموت يحوم هناك. كان هنالك كلمة «موت». حتى في سنّ ثلاث سنوات أو أربع، كانت هذه الكلمة تعني شيئاً. تتردّد على ألسنة النساء في أحاديثهن: «أحدهم مات، أحدهم قُتل». لم يكن موتاً مرئيّاً بل لا مرئيّ. لا أتذكّر حقيقةً ولكنّي لا بدّ أن سمعت هذه الكلمات دوماً: «موت»، «قتيل».

الأمر كان وادعاً أيضاً. وادعاً جدّاً بالتأكيد.

الشقّة في الطابق الأول كانت تقع تماماً في أعالي قرية «روكبيلير». كانت ضيّقة، عبارة عن غرفة سفرة ومطبخ، غرفة لجدّتي، غرفة لوالدتي والأولاد، وغرفة ضيّقة لجدّي (كان كثير التدخين بالنسبة لجدّتي وتنبعث من ثيابه رائحة رماد التبغ). قضينا فترة الحرب فيها. ما جعل هذا المكان جذّاباً هو الجوّ النسائي السائد فيه. كان يمكن للشقّة أن تبدو ضيّقة جدّاً، وخصوصاً مع طفلين صغيرَي العمر ومشاغبَين ومتطلّبين. ولكن على العكس، أحتفظ بذكرى مبهمة أنّ المكان كان مريحاً ودافئاً، يشبه الشرنقة التي تستطيع النموّ فيها في منأى عن الخطر. الجوّ كان رماديّاً ورطباً وبارداً في الخارج، وحارّاً حرارة النفس في الداخل. مع الدرفات المغلقة، كان

الضوء الكهربائي لا يترك أيّ زاوية معتمة، والعزل يمنع ضوضاء الخارج من الوصول إلينا. لم يكن أحدٌ يسكن فوقنا أو تحتنا. المخزن كان مظلماً دائماً. حين ندخل إليه، كنا نرى الأشكال الشبحية لأكياس البطاطا المخزّنة والكراتين والصناديق الخشبية. تنبعث منه رائحة ترابٍ وتعفّن، ورائحة الدخان البارد العنيدة والمبهمة التي لا تفارق شوارع القرى الجبلية.

الوداعة كانت متمثّلة أيضاً بتنانير جدّتي والنسيج المحبوك والأوشحة. في النهار ترتدي والدتي ألبسةً تشبه ألبسة رياضيي عام 1930: تنّورة قصيرة وقميصاً بأكمامٍ قصيرة صيفاً، ومعطفاً من الصوف شتاءً. كنّا نتنقّل بين الواحدة والأخرى لنشتمّ من عليهما رائحة الخارج، رائحة العشب والخلنج، والأوراق الميّتة، وبالأخص رائحة المغامرة.

إن تأملت سنوات الحرب في «روكبيلير»، فإنّ صورة رحم الأمّ هي التي أتشبّع منها. الشقّة والمنزل الصغير من الحجر الرمادي، المناظر المحيطة، الجبال التي يلفّها الضباب، ووادي «فيزوبي» المكسوّ بالعشب الأخضر الطويل، كلّ هذا يمنحني الشعور بأن فترة مكوثي في رحم والدتي امتدّت لما بعد الولادة، هذا المكان المغلق والضيّق والدافئ حيث كنت أشعر بضربات قلب والدتي وتحرّك السائل الأمينوسي، عالمٌ ليس لي الرغبة في مغادرته بعد، عالم شعرت فيه بآخر لحظات السلام والأمان. إنه لأمرٌ غريب، فهذا العالم، هذه الفقاعة، لم يحمني حقّاً من قساوة الخارج. ذاكرتي تخدعني وتُجبرني على هذا النكوص. أيشعر الأطفال الذين تكلّمت سابقاً عنهم، في البلاد التي تمزّقها الحروب، أولئك الصبيان والبنات الذين يكادون لا يعرفون المشي أو نطق بعض الكلمات بلغة البالغين، بالشعور نفسه؟ أيصنعون شرانق تحت خيم المخيّمات أو في المناطق العشوائية

تمكّنهم، بطريقة أو بأخرى، من تشكيل ذاكرة مضادّة تعمل كترياق ضدّ القنابل والصواريخ؟ كيف يمكن تعليل استطاعتهم بعد ذلك استلال بندقية أو رشّاش أو ساطور والمشاركة في مجزرة؟ كيف يمكن أن نفهم أنهم لا يتكلّمون نهائياً عن الخوف؟ أنهم لا يخشونه؟ يقاتلون بأسلحة أثقل منهم وزناً ولا يتردّدون في استخدامها ضد أطفال آخرين، ضد نساء يشبهن أمهاتهم، ضد عجائز وجوههم تشبه وجوه أعمامهم وأجدادهم؟!

في البلاد التي تمزّقها الحروب، لا يخرج الأطفال. هي أيام طوال يقضونها في الداخل، في الغرفة الوحيدة التي تجتمع العائلة فيها. جدّي جالس بالقرب من النافذة يقرأ، والدتي وجدّتي مشغولتان في الطبخ وترقيع الثياب، والطفلان يلعبان قدر استطاعتهما بما هو متوافر، مثلهما مثل كلّ أطفال الأرض.

كنّا نرافق جدّتنا مرّةً في اليوم إلى السوق في القرية القديمة على الجانب الآخر من الجسر. طريق «فيزوبي» خالٍ من السيارات، فنمشي في منتصفه. لم تعد عربة الأطفال تُستخدم لنقل الرضّع، لقد أصبحت تُستعمل لنقل الخضراوات والبطاطا وخشب التدفئة. في الملحمة الوحيدة في القرية، وقفت جدتي في الطابور لتشتري قطعة لحم تطهو بها حساء اللحم والخضار، عظمَ عجل أو سقطَ ذبيحة. تنتمي جدّتي إلى الجيل القديم الذي يطهو باستخدام أجزاء الذبيحة الأقل نبالةً مثل عظمة بنقيّها، تتركها تغلي طوال النهار مع اللفت وخرشوف القدس، أو قطعة عرقوب، أو ذيل بقرة أو لسانها. اليوم يبدو لي هذا بائساً، ولكنّها لم تكن تعرف أيّ شيء آخر. لم تغيّر الحرب في عاداتها كثيراً. بالنسبة إلى أطفال صغار كان ذلك أكثر

صعوبةً، إذ يلزمهم حليب وطحين وسكّر. وملح على وجه الخصوص. حين انتهت الحرب لم أهرع إلى تناول السكاكر والشوكولاتة، بل لتناول حفنات من قطع الملح الرمادي في جرار زجاجية. ما زلت قادراً على الإحساس بطعم الملح الدافئ ولدغته في فمي، والشعور بالامتلاء. طعم البحر.

في الملحمة، أقف إلى جانب جدّتي. هنالك رائحة الدماء ورائحة اللحم الباهتة والباردة. هنالك الذباب. عمري ثلاث سنوات وأصل إلى مستوى ساقَي جدتي. على قصبة ساقها اليمنى كان هنالك جرحٌ نتن. لطالما اعتقدت أنه كان جرحاً لم يُعتنَ به جيّداً، أنها أُصيبت به بسبب سقوطها على صخرة وهي تبحث في أحد الدروب الجبلية عن أعشاب تستخدمها في طهو اليخنة. يحطّ الذباب على الجرح ولكنها لا تشعر بشيء. راقبت الجرح. وجهي لا يبعد سوى بضعة سنتيمترات عن ساقها. أنظر إلى الذباب يمشي على الجرح. هل كنت أفكّر بشيء؟ يفكّر الأطفال بشيء دوماً، بكلّ تأكيد، حتى في عمر ثلاث سنوات. ولكن بماذا؟ أنظر دون اشمئزاز أو شعور بالخوف أو حزن. ذلك لا يستطيع أن يسلب شيئاً من حبّي لجدّتي ومن الذكرى التي أحتفظ بها عنها، عن حبّها للحياة وعن طريقتها في تقبيلي وضمّي في ذراعيها وغناء التهويدات قبل النوم. هذا جزءٌ منها. يلتهم الذباب ساقها كما ألتهم أنا لحم البقر أو الخرفان الذي نشتريه من الملحمة.

الذباب هو الرابح الأكبر في الحروب. ربما لأنها كانت تخشى على جرحها المتقرّح منه، عزَتْ جدّتي وجود الذباب إلى جيوش الاحتلال.

كانت تقول إنّ أعداده كانت معقولة قبل الحرب. لقد جلبها الألمان معهم. لم تكن مصادفة بل خطة مدروسة لتقويض عزيمة الفرنسيّين. لست متيقّناً أنها كانت تعتقد حقّاً أن الألمان قد ربّوا الذباب لاستعماله سلاحاً عبر نشر مئات الآلاف أو مئات الملايين منها في أنحاء أوروبا. في الحقيقة، أعداده كانت كبيرة جدّاً في «روكبيلير». في صباح كلّ يوم، كان جدّي يصطادها متسلّحاً، عوضاً عن قاتلة الذباب التقليدية، بصحيفة مطويّة. يجول في غرفة السفرة يضرب الجدران والنوافذ وشرشف الطاولة المشمّع. لم يكن يستطيع القضاء عليها كلّها فقد كانت لا تُقهر.

الخروج صباحاً لجلب الطعام كان التسلية الوحيدة المتاحة للأطفال. الطريق النازل إلى القرية القديمة فيه انحناءٌ عريض يبدو لي طويلاً جدّاً اليوم. أستطيع رؤية كلّ حجر على جانب الطريق وحقول العشب على ضفة النهر وسفوح الجبال. إلى اليسار تنتصب تلّة «بيلفيدير». لماذا لا أزال أتذكّر هذا الاسم؟ أعلن أخي ذات صباح أن التلّة ستنهار وجميع المنازل المبنية عليها. لقد حلم بذلك. وهذا ما حصل. دمّرت هزّة أرضية «بيلفيدير». ما زالت تلك القصة محفورة في ذاكرتي منذ ذلك الوقت كما لو أنها حقيقية. ما حلم به أخي حدث على أرض الواقع. حتى اليوم، تثير هذه القصة الاضطراب في نفسي وتقلقني، لأننا لو كنّا أنصتنا إليه لسنح لنا الوقت أن ننقذ حياة الكثيرين ونتفادى الدمار. كان يكفي أن نركض ونصرخ: «اهربوا بحياتكم، اهربوا فكلّ شيء سينهار». لم يعبأ أحد بحلم أخي ولا أنصت اليه. أعلم الآن أن هذه القصة غير واقعية: الهزّة الأرضية التي دمّرت «بيلفيدير» حدثت قبل ولادتي بوقت طويل، قبل الحرب. هل

حلمت بها؟ متى؟ في الحرب، لا يعلم الأطفال شيئاً عن الواقع، ينصتون إلى كلمات ويبنون سردياتهم.

كنّا ننزل الطريق حتى الجسر. قبل الجسر، داخل انحناء النهر، هنالك حقلٌ من العشب العالي. مكانٌ ساحرٌ جذّاب ومخيف في آن واحد. هذا حقل الأفاعي. كنّا نغامر بالدخول إليه أيام الصحو. تتسلّح جدّتي وأمّي بعصيّ تضربان بها الأرض لإخافة الأفاعي. في الشتاء، يفيض النهر ولا يترك مكاناً للمشي في ذلك الركن. فننظر إلى حقل الأفاعي دون أن نجرؤ على الخوض فيه.

يمكن ملاحظة برج الكنيسة بعد عبور الجسر. لماذا كان هذا البرج بتلك الأهمية بالنسبة لي؟ ربما لأنه أول برج كنيسة أراه. في نيس لم نكن نذهب إلى الكنيسة على الإطلاق. كانت بعيدة والطريق إليها محفوف بالمخاطر. موّه المحتلّون (الإيطاليون والألمان) كنيسة المرفأ بشادر كبير مبرقش مُدَّ بين الأعمدة على جانبَيْ برج الجرس خوفاً من القصف. كان المرفأ يعجّ بالحواجز ومغلقاً بشبكة من الأسلاك الشائكة. دُهنت جدران الأبنية بكلّ الألوان، الأخضر والأصفر والخاكي. رأيت ذلك بعد أن وضعت الحرب أوزارها وصار بإمكاننا الوصول إلى كنيسة المرفأ.

في «روكبيلبير»، يرتفع برج الكنيسة عن الأسطح. كان يظهر مع اقترابنا من القرية القديمة. هل كنت أحبّه؟ لا أعرف ما إن بإمكاني القول إنه كان حبّاً، ولكنّه كان بالنسبة لي مثل وجهٍ مألوف. على أحد الجوانب هنالك ميناء ساعة بنوّاس لم أكن قد رأيت مثله من قبل. ميناء مدوّر كوجه القمر، مع الأرقام والعقارب.

لا أعرف قراءة الوقت - في الحقيقة لم أتعلّم قراءة الساعة حتى أصبحت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري. كان ذلك امتحاناً يكافأ بشريطٍ في الكشّافة، وعانيت الأمرّين في تجاوزه. ربما سبّب لي برج ساعة روكبيلير عقدةً ما. ربما توقّفت الساعة بسبب الحرب. أيمكن للحرب أن توقف الساعة؟ أو ربّما سيق الشمّاس سجيناً ولم يعد هنالك من يصعد إلى البرج ليعبّئ الساعة.

الحرب رمادية.

تسحر نيس والشاطئ الأزرق السيّاح والفنّانين والرسّامين. استخدم «ماتيس» كلّ الألوان الفرحة في لوحة ألوانه لرسم البحر الأزرق والنخيل والزهور والفتيات، كلّ ما وقعت عليه عيناه من خلال نافذته في قصر فيكتوريا.

أنا لا أتذكّر شيئاً من هذا القبيل. لقد تركنا ڤيلّا «إيدالي» في بولفار «كارنو» لأنه مؤخّراً كنّا نمضي وقتاً طويلاً في القبو نستمع إلى صفّارة الإنذار ونترقّب زئير القنابل. وصلنا إلى «روكبيلير» في ربيع 1943 في وقتٍ كان الجوّ فيه لا يزال بارداً. لا أذكر سوى اللون الرمادي، رمادي كلون معاطف الجنود الألمان المشغولين بنزع إطارات سيارة جدّتي في باحة بنائها، رمادي كلون سماء الفجر حين ذهبنا على متن شاحنة للعيش في الجبال، رمادي كلون وديان ريف نيس، لون المنحدرات الأسمنتية، لون أحجار بيوت القرية العارية، لون الهواء حبيس المخزن الذي كنّا ذاهبين للسكن فوقه.

هنا عشت صيفي الأول. في نيس وبروتاني هنالك فصول، الجيّدة منها

والسيّئة. أرى عربة الأطفال خاصّتي (شيء يشبه مجسّماً مصغراً لدبّابة هجومية تمشي على أربع عجلات صغيرة مصبوبة) في حدائق الجنوب أو أزقّة «سانت مارين» في بروتاني. كان ذلك زمناً آخر لم يطبع شيئاً في ذاكرتي. النزوح في سيارة جدّتي القديمة مع والدتي وأخي وجدّي عبر فرنسا المحتلة وعبور خط الفصل قد محَوَا كلّ شيء. حصل هذا في عالم آخر، قبل استيقاظي. في تموز وآب 1943 انبلج الصيف للمرة الأولى بالنسبة لي.

لا أعرف ما إن كان باستطاعتي القول إني أتذكّره. لقد شاهدت صوراً كثيرة في ما بعد: صوراً فوتوغرافية، أفلاماً إخبارية، أفلاماً سينمائية. وقرأت العديد من القصص والروايات وكتب التاريخ. الذاكرة نسيج هشّ سهل التمزّق والتلوّث. أتحاشى كتب الذكريات لأنها تقدّم مزيجاً ملتبساً ومتناقضاً، نوعاً من حساء فيه الحقيقيّ والمزيّف والجيّد والمنافق، التي لفرط طهوها أمست هلاماً لا حياة فيه ولا طعم له.

لا يمكنني القول إني أتذكّر صيفي الأول. ما أعرفه هو أن هنالك انبهاراً في داخلي، لمعان برق، نور الشمس في كبد الوادي، حقول القمح الذهبية، مياه النهر، الصخور، والسماء الصافية.

عمري ثلاث سنوات. هل يمكنني التعبير بكلمات عمّا أشعر به؟ دون كلمات بلا شكّ إلا هذه: إنها المرة الأولى. في رمادية الحرب وعتمة القبو الباردة، في البناء المقصوف، ظهرت فجأةً ثغرةٌ بمناسبة عيد ميلادي الثالث. النور والحرية والحرارة، مياه النهر، رائحة العشب. لو لم تكن الحرب، لو لم أشعر بالجوع (للغذاء والحب والدفء) لما كان لهذا الصيف أن يكون. كان ليختلط مع باقي الفصول، مع فصول الصيف

التي تبعته، مع الحياة في إفريقيا، والعواصف المطرية والشمس الحارقة والليالي الضاجّة. أو حتى مع الصيف في بروتاني وحرّيّة الدروب الترابية والبراري والمحيط.

أرانا، أنا وأخي، في صور من وقت الحصاد. ذلك في شهر تموز 1943. كنّا في حقلٍ مع فلّاح نحمل سنابل أطول منا. خلفنا، في البعيد، تظهر منازل «روكبيلير»، والانحدار الواصل إلى النهر، وأشجار. منظر عادي وفقير. مساحة الحقل أقلّ من هكتار ويستطيع تأمين الحبوب لبضع عائلات. الفلّاح في الأربعينيات، يلبس قميصاً مكفوف الأكمام ويعتمر بيريه سوداء، ويبتسم. لماذا لم يكن في السجن مثل أغلب الفرنسيّين؟ تقع «روكبيلير» في المنطقة التي يسيطر عليها الإيطاليون. لم يصل الألمان إليها بعد. أولئك الذين أسروهم دون سلاح من الفرنسيّين أعادهم الإيطاليون إلى منازلهم ليعاودوا العمل.

بالطبع لست متأكّداً من ذلك. ولكن بالنسبة لطفلين صغيرين، لا بدّ أن هذه اللحظة كانت ساحرة. لحظة حرّيّة. لم يكن هنالك من عنف أو قنابل أو صفّارات إنذار. هنالك الوادي الدافئ من حرارة الشمس، وسنابل القمح الطويلة التي تخدش أيادينا، ورائحة القشّ، والسنابل الحبلى حبوباً، والأرض الجافة تحت صنادلنا. خدشت سنابل القمح أرجلنا وقرصت أذرعنا. كنا نجمعها وننقلها إلى الفلّاح ليربطها في رُزَم ويتركها في أرض الحقل.

سحر المكان ينقلك خارج الزمن. بسبب الحرب لم يعد هنالك من شيء له علاقة بالحداثة. ما من آلات أو حصّادات أو درّاسات. ليس هنالك

سوى الرجال الذين يحصدون باستخدام أيديهم ويربطون الحزم وينقلونها في ما بعد على عربات تجرّها البغال إلى باحة المزرعة لتخزينها. كان ذلك قديماً جدّاً، كما لو أنّ العالم لم يتطوّر منذ العصر النيوليثي، كما لو أنّ الإنسان لم يخترع شيئاً، كما لو أنّ الحرب قد أوقفت الزمن أو عادت به إلى الوراء. لم أكن أعي ذلك آنذاك، ولكني كنت أعيش في ذلك الوقت آخر محطات الحضارة الزراعية. شهدت الحصاد لاحقاً في بروتاني، ولكنّي لم أعِشه كما في «روكبيلير». لم أرَ هذه الاحتفالية. كنت أقف أمام القمح الأطول مني تحت الشمس، تلفّني رائحة السنابل والسنيبلات وملمسها، مع رجالٍ يحصدون بالمنجل في وادٍ منسيّ.

مع جدّتي، كنا نجمع السنيبلات الواقعة على الأرض بعد ذهاب الفلّاحين بعرباتهم. نجمعها في أكياس ونعود بها إلى المنزل حيث نضعها في مطحنة قهوة جدّتي للحصول على الطحين.

الالتقاط هو نشاطٌ قديم جدّاً. وذلك يعني أننا كنا جائعين وأننا بحاجة إلى طحين. لم ينهَنا فلّاحو «روكبيلير» عن التقاط السنابل. بعد زمن طويل، في الصين، تحدّثت مع الروائي «مو يان» الذي روى لي كيف كانت والدته تلتقط حبوب الذرة البيضاء في زمن المجاعة في حقول «غاومي» في مقاطعة «شاندونغ». تعرّض مراقب عمّال الحصاد لها مرّةً وضربها على وجهها، فوقعت ونزفت من فمها. هو أيضاً تعرّض للجوع ولم ينسَ شعور الكراهية الذي انتابه تجاه الرجل الذي ضرب أمّه.

حين يُناقش الجوع، أغلب الناس الذين يتحدّثون عنه عرفوه من الخارج. أنا عشته من الداخل.

الشعور بالجوع ليس هو هذا الفراغ اللذيذ الذي يشعر به الطفل لدى عودته إلى المنزل من المدرسة. ولا الشهيّة التي تُسيل اللعاب أمام طاولة الطعام الجاهزة والصحن الذي ينبعث منه البخار أو الصينية الباردة التي تصطفّ عليها الحلويات من كلّ الألوان. هو ليس ما ينتابك من شعور بعد مشيٍ طويل أو تعبٍ جسديّ، كما شعرت بعد أن عبرت غابة أعالي «تويرا» وصولاً إلى «بالو دو لاس ليتراس» على الحدود الكولومبيّة. اختبرت كلّ هذا لكنّه ليس الجوع. كان ذلك حاجة أو رغبة يجري إشباعها عند تناول الطعام.

الجوع الذي أتكلّم عنه، اختبرته في فترة طفولتي الأولى إبّان الحرب. لا أذكر سوى هذا الجوع. ليس قرقعة معدة، بل فراغاً في مركز جسدي، كلّ الوقت، في كلّ لحظة، فراغاً لا يمكن لأيّ شيء أن يملأه أو أن يُشبعه. هو جوع في النهار والليل والخارج والداخل، في السرير وفي المطبخ، أثناء النوم أو أثناء المشي. هذا الجوع، يمكن للبالغين أن يشعروا به. بشكلٍ ما، كانوا هم أحقّ مني في الشكوى منه. كانت جدّتي تأكل قشور الخضراوات وتعطينا، نحن الأطفال، لبّ الجزر واللفت والبطاطا. لم يكن الحليب متوفّراً يومياً. ما كانت أمي تستطيع الحصول عليه من حليب أو جبن كانت تخصّصه للأطفال وليس البالغين. البالغون أشدّاء. حين يأكل المرء إلى حدّ الشبع في طفولته لا يشعر لاحقاً بالجوع. مخزون البالغين أفضل من الذاكرة. ينحفر ذلك في خلاياهم، في دماغهم، في أحلامهم. يمكنهم الحديث عنه. يمكنهم تذكّر موائد المحبّة وتأمّل عودتها. يمكنهم القول: «حين ينتهي كلّ هذا...». يتخيّلون اليوم الذي ستنتهي الحرب فيه، كما انتهت حرب 1918، أو قبلها حرب 1870 حين حوصرت باريس من الجيش البروسي واضطرّ الناس إلى أكل حيوانات حديقة الحيوان.

الأطفال ممّن هم في سنّ أقلّ من خمس سنوات لا يذكرون شيئاً. وكيف يمكن لهم ذلك؟! لقد وُلدوا من رحم الحرب وفي خضمّ العنف.

أتكلّم عن الفراغ. لم يكن فراغَ الجسد، بل نقصاً دائماً، ثغرة، فضاء. لا أذكر أني كنت أشتهي هذا الشيء أو ذاك. لم يكن لدينا الخيار. لم يكن لدينا ما يكفينا من أيّ شيء، بكلّ بساطة. كان ينقصنا البروتين والسكّر والملح والدهون. الدهون بالأخصّ. بعد انتهاء الحرب، مع بدء الأغذية بالوصول (كانت مقنّنة ولكنّها تصل)، أذكر أنّي شربت زيت كبد سمك القدّ بشهيّة. أذكر أنّي لعقت حُبيبات الملح ومضغت حسك الأسماك. الخبز أيضاً. كدت أن أموت من الزحار وأنا في الثالثة، لأن الخبز الذي كنّا نشتريه في نيس ملوّث. يبدو أنهم كانوا يخلطون القمح بنشارة الخشب. خبز أتخيّله رمادياً وحامضاً. لا أحتفظ بأيّ ذكرى عن هذا الخبز، ولكن مع التحرير، بعد أن اجتاح الأميركان والكنديّون والإنكليز الشاطئ الأزرق، استلمت كلّ عائلة خبزاً أبيض مقابل قسيمة. أتخيّل أنّه كان مصنوعاً من الرزّ لشدّة بياضه. لم أنسَ طعمه البتّة، حلو وشهيّ، ذائب ومعطّر. استلمنا عن طريق الصليب الأحمر علب باتيه بيضوية الشكل تُفتح بواسطة مفتاح صغير وتحوي لحماً ورديّ اللون، مدهناً، وذا رائحة مميّزة، كانت جدّتي تقطعه باقتصاد وتدهنه على شرائح الخبز الأبيض الشهير.

لتذكّره بعد مرور زمن طويل والإحساس بطعم هذا اللحم على لسانك، عليك أن تكون قد شعرت بالجوع لسنوات. بعد ذلك بزمن، حين سافرت إلى المناطق الفقيرة في المكسيك، وجدت العلب البيضوية نفسها على رفوف بقاليات القرى، إلى جانب علب حليب «كارناسيون» وأكياس

الخبز الصناعي. لقد تغيّر اسمها. تُسمّى اليوم «لحم الشيطان»(*). كيف أصبحت الباتيه التي أنقذت حياتنا تحمل اليوم اسم الشيطان؟!

الجوع هو الإحساس أنك لن تستطيع أبداً سدّ هذا الفراغ في وسط جسدك. مرّت الأيام وكبرتُ في عالمٍ مختلف. في إفريقيا أولاً حيث لم ينقصنا شيء من غذاء وحرية. في نيس وبروتاني ولّى زمن الترشيد. لم يعد هنالك شيءٌ ممنوع، لا تقنين ولا رغبات غير مشبعة. مع ذلك، حين أتكلّم عن طفولتي في ذلك الزمن مع أشخاص أصغر مني عمراً، وُلدوا بعد انتهاء الحرب ونشؤوا في المناطق الريفية من فرنسا، أو حتى في باريس، لا أشعر أني أتشارك معهم أيّ شيء. لم يعرفوا الجوع بل على العكس تماماً. قال لي بعضُهم إنهم كانوا يصابون بالتخمة لكثرة ما أكلوه في تلك السنوات، الكثير من الزبدة، الكثير من اللحوم، والكثير من الحلويات. في الجانب المحتلّ من فرنسا، كانت الولائم في أوجها. ربما لأن أغلب الرجال كانوا في معسكرات الاعتقال، وباب الثروات الغذائية مفتوحٌ على مصراعيه للأطفال. ضرب الحظّ السيّئ مدناً مثل «نيس»، في المنطقة التي يقال عنها حرّة، و«كان» و«مونتون». المدن الكبيرة الجميلة التي لم تكن تنتج سوى الكازينوهات والحفلات التنكّرية والسهرات المخملية. للحصول على الطعام، كان على أمّي أن تذهب على الدرّاجة حتى مقاطعة «لوفار» (حيث حلّت اليوم مراكز التسوّق والأبنية الإدارية محلّ المزارع) لتحصل على بعض السلق والبطاطا التالفة والكرفس. في السنوات التي تبعت الحرب، كان العجائز يذهبون إلى السوق على ضفاف نهر «بايون» لالتقاط الخضراوات الساقطة على الأرض، كما كنّا مع جدّتنا نلتقط سنابل القمح

(*) بالإسبانية في النص.

من الحقول. رأيتهم يلتقطون خفيةً، بأطراف عكازاتهم، الملفوف والجزر المتعفّن ويضعونه بخجلٍ في سلالهم. هؤلاء العجزة يموتون من الجوع حرفياً دون أن يجدوا من يساعدهم. لا يمكنني نسيان أيّ شيء من ذلك. لقد بات يشكّل جزءاً من كياني، هذا الفراغ الذي حفرته سنوات الحرب في أحشائي، في رأسي.

أعتقد أني عشت في ذلك الوقت صيف الموت.

كان صيف 43 حارّاً جدّاً. لا أذكر الحرارة ولكني أذكر أننا كنّا، أنا وأخي ووالدتي وجدتي، نذهب للسباحة في مياه «فيزوبي». كان صيفاً مبهراً كما هي الحال دوماً في الجبال متوسطة الارتفاع (أقلّ من ألف متر)، في «روكبيلير» و«لانتوسك» و«سان مارتان». الوادي الضيّق يشكّل وعاءً مفتوحاً لأشعة الشمس، والجبال المحيطة تشكّل أسواراً تصدّ الريح. تتخزّن الحرارة في كلّ ما تصله وتشعّ طوال النهار، من الصباح حتى المساء. الهواء ساكن والحرارة تُضني. كنّا نذهب في الصباح مشياً على الأقدام حتى النهر. ننزل نحوه قبيل الجسر بقليل حيث يوجد دغل الأفاعي. تحيطنا الدبابير على ضفة النهر. كان هنالك أيضاً ذباب الخيل الذي وقع لدغته على الجلد حارٌّ كالجمر. يقع ذلك المكان على علوٍّ قليل من القرية. تنساب المياه هناك سقوطاً بين الكتل الصخرية الكبيرة. اختارت أمي هذه النقطة لأن المياه صافية فيها، بعيداً عن الأماكن المستخدمة لغسل الثياب. لم تكن أمي تخشى الطبيعة البتّة. قبل ولادتنا جالت في جبال غرب الكاميرون مع والدي على صهوة حصان وسبحت في الأنهار.

لا بدّ أنها تستعيد في هذا الوادي الأحاسيس التي تحبّ، الحرّيّة

والمغامرة. هل بقي لنا منها شيء؟! طفلان صغيران عاريان في وسط الصخور ترشّهما الدوّامات بالمياه الباردة وتثير ضحكاتهما تحت الشمس الحارقة، يخوضان في المياه مثل الكلاب دون خوف من الحشرات. حتى وإن كنت صغيراً جدّاً لأجد الكلمات التي بإمكانها وصف هذا المشهد إلا أنّ جسدي ما زال يذكر الماء والشمس والرعشات التي انتابته. أكان هذا ما أردت استعادته حين سافرت وأنا بالغٌ إلى أنهار غابات الداريان في بنما، هذا الشعور بالحرية الذي يعكسه جريان الماء والبرودة والشمس والحشرات، عضّاتٌ بالملايين من الأسماك المختبئة في الرمل؟ ليس هنالك من أسماك في «فيزوبي»، ثمّة علَقات في المستنقعات وأفاعٍ على الضفاف.

أتتني ذكرى ماريو. لقد تكلّمت عنه في رواية «ترنيمة الجوع». بدا لي أنه ليس بمقدوري تخيّل الحرب دون ماريو. إنه بطلي، الرجل الوحيد من المقاومة ضد الألمان الذي عرفته، الوحيد الذي عرفته خارج قراءاتي التاريخية. أيمكن اعتبار هذا ذكرى؟ كيف استطعت حفظ ذلك الاسم؟ هو جزء من طفولتي، على غرار ماريّا، طبّاخة جدّتي الإيطالية التي رحلت عن نيس مع وصول طلائع الجيش الألماني ولجوئنا إلى الجبال. لا أذكر منها سوى طعم أكلة النوكي التي كانت تطبخها بما كان متوفراً، أيْ خرشوف القدس المخلوط بالبطاطا، لعدم توفّر دقيق القمح. لدى رحيلها إلى «تيسان» بكَينا بمرارة، أنا وأخي، لأننا كنّا نكنّ لها حبّاً صادقاً.

لكن ما الذكرى التي أحتفظ بها عن ماريو؟ أنه كان في الخامسة عشرة نظراً لأنه كان يلعب معنا حين نتوجّه إلى النهر، لأنه كان يسبح معنا، ويرمينا

في المياه، ويحملنا وهو يضحك. الفضل يعود له أني عرفت اسم حقل الأفاعي. كان يتحدّث عنه أو ربما يُرينا المواضع التي تختبئ الأفاعي فيها، الأحجار المسطّحة على حافة النهر التي تدفئها أشعّة الشمس. هل كان يقتلها أو يكتفي فقط بإخراجها من جحورها كي نراها تزحف دون عجلة (الأفاعي شديدة السمّيّة تزحف ببطء)؟ ربما كان يُرينا إيّاها وهي تتزاوج، متعانقةً معاً على شكل عقد. لا شيء مما ذكرته للتوّ معقول. ما أذكره ومتيقّن منه هو أن ماريو أصهب. لمّا قُتل بانفجار القنبلة التي يحملها، تكرّرت هذه الجملة الرهيبة والخارجة عن المألوف على مسمعي: «ولم يبقَ منه سوى خصلة حمراء!». مَن قال ذلك؟ ليست والدتي بالتأكيد فقد كانت تستلطف ماريو. أحدهم أتى بالخبر إلى الشقّة التي كنّا حبيسيها. أحدهم صعد الدرج وقرع الباب ليقول ذلك، هذه الكلمات فقط: «توفّي ماريو، ولم يبقَ منه سوى خصلة شعر حمراء».

من كان ماريو؟ ماذا كان يعمل هذا الإيطالي في الأراضي المحتلّة؟ ليس لديّ جواب عن هذا السؤال. هو ينتمي إلى ذلك الهامش من التاريخ الذي لا نجد عنه أثراً في الكتب أو الصروح، ينتمي إلى هذا الهامش المسمّى حدوداً. الفلّاحون والرعاة من أعالي الجبال ركبوا البحر في بداية الحرب، وحتى قبلها، مع صعود الفاشيّين إلى السلطة. ربما كانوا شيوعيّين، أو أنهم كانوا ينفرون مما يمثّله السياسيّون حول موسوليني من فساد وشرّ تقوم عليهما حركته العنصرية كارهة الأجانب. لم يكن ماريو في السن الذي يسمح له بإطلاق الخطابات. التحق بالمقاومة كما فعل من قبله أولئك الذين ناضلوا ضد جيش بونابرت. وبما أنه كان يُعتبر خارجاً عن القانون في «بيمون»، رحل سالكاً طريق الرعاة في أعالي الجبال مع

عائلته وأصدقائه. الطريق نفسه الذي سلكه اليهود عام 43 لدى فرارهم عبر قمة «فينسيتر» حتى «سانت آنا ديفالديري» في وادي «ستورا» هرباً من تقدّم الألمان في الجبال. الطريق نفسه أيضاً الذي سلكه بعد خمسين عاماً المهاجرون الذين استقبلهم أهالي أعالي «تينيه» و«فيزوبي».

قُتل وهو ينقل قنبلة. أين كان ينوي زرعها؟ على جسر لإعاقة تقدّم الجيش الألماني؟ ربما على الجسر عند مدخل القرية القديمة. لم يكن هنالك ماريو واحد بل اثنان. الذي كان ما يزال طفلاً ويلعب معنا ضاحكاً، ويسبح في شلّالات «فيزوبي»، ويُرينا أعشاش الأفاعي في وسط العشب الطويل. وماريو الآخر، بطل من المقاومة، الشيوعي الإيطالي الذي يكره هتلر وموسوليني لدرجة أنه حمل قنبلة في الصباح الباكر وفقد حياته، بعد أن تعثّر بجذرٍ نافر.

يثير هذا الجزء من التاريخ اضطرابي. يجعلني أدرك أنه يمكن للحرب أن تتسبّب في موت الأطفال، أنه لا يمكن للطفل أن يعيش طفولته حقّاً حين يولد في خضمّ حرب.

مهما كان الهدف الذي يسعى وراءه، إنّ الطفل حامل السلاح فاقدٌ لطفولته، إذ يصبح منتمياً إلى فئة عمرية أخرى، عنيفة وشرسة، دون رحمة، عمر البالغين.

نتحدّث دوماً عن الأطفال المجنّدين في الحروب. وصف ذلك الكاتب النيجيري «كين سارو ويوا» في روايته «سوزابوي» التي تسخر من بطولات الحروب المزيّفة. قرأت في طفولتي قصص «بادين بويل». لقد كانت تلك قراءة إلزامية لكلّ أطفال الحركة الكشفية، وتوليها السلطات (شبه العسكرية والدينية) قيمةً عظيمة. كان مثالاً يحتذى لليافعين. كيف

كان جيش المتمرّدين يجنّد أطفالاً لنقل الأسلحة ونشر المعلومات إبان حرب «بويرز» في جنوب إفريقيا. كان بإمكانهم تدريب الكلاب والحمام الزاجل، ولكنّهم درّبوا الأطفال. حظي «بادين باويل» بلقب في اللغة السواحلية: «أمبيزا»، الذئب الذي لا ينام أبداً. كان ذلك عصراً يسود فيه اعتقادٌ يساوي بين الإنسان والذئب. يُحضرون الأطفال للمشاركة في الحرب استناداً على هذا التسلسل: الحركة الكشفية، ثم قوّات القبّعات الخضر، ثم قوّات المظلّيين.

هذا تماماً ما كان يحصل. لمّا كنت في السابعة عشرة، شنّت فرنسا حرباً لا رحمة فيها ضد الجزائريّين لتحافظ على سطوتها الاستعمارية. في الثانوية في نيس، كان هنالك فتىً من صفّي يدعم جبهة التحرير الوطنية، ويعمل في نقل الأموال والأخبار والتجسّس أيضاً. أذكره جيّداً. كان والده شرطياً، ينقل حقائب النقود والوثائق إلى معارفه من العدوّ. لا أعرف ما آل إليه حاله بعد ذلك، هل نجا من هذه الفترة الخطيرة؟ في كلّ مرّة كنت أقرأ في الصحافة عن الأطفال المجنّدين، وعن حجم الأخطار التي يعيشونها، أفكّر بماريو وبخصلة شعره الحمراء في الحفرة التي خلّفها انفجار القنبلة. أفكّر بالأطفال اليهود الذين اضطرّوا للهروب عبر الجبال.

أن يولد المرء في زمن الحرب يعني أن يكون شاهداً رغماً عنه، شاهداً غير واعٍ، هو قريبٌ وبعيد في آنٍ واحد، ليس لا مبالياً ولكنْ مختلف، كما يمكن لطير أو شجرة أن يكونا مختلفين. كنّا هنا، عشنا الحرب، ولكن ما كان لها أن تأخذ أيّ معنى لولا ما علمناه من الآخرين في وقت متأخّر (متأخّر جدّاً؟!).

كنّا أطفالاً في قرية «روكبيلير». على بعد أقل من عشرة كيلومترات

أعالي النهر نفسه، في «سان مارتان دو لانتوسك» (اليوم «سان مارتان فيزوبي»)، في صيف 1943 عاش أناسٌ تراجيديا حقيقية. نساء ورجال وأطفال من عمرنا هربوا من الجيش الألماني عبر قمّة «فينيستر» باتجاه إيطاليا. حدث هذا في فترة الصيف نفسها التي كنا نسبح فيها في نهر فيزوبي ونلعب مع ماريو، قبل عدّة أيام أو ربما عدّة أسابيع من مقتله بانفجار القنبلة. ما إنْ أفكّر بماء النهر وبحقل الأعشاب وبحرارة الصيف حتى تخطر لي ذكرى يهود «سان مارتان». أثناء ما كنّا نلعب ببراءة، كانوا هم قد بدؤوا مسيرتهم على طول الدرب الذي حفرته سيول «فينيستر». حملوا أمتعتهم ودفعوا عربات أطفالهم على الطريق المغطّى بالحصى. فتحوا مظلّاتهم للاحتماء من أشعة الشمس، وتوقّفوا للاستراحة تحت أشجار الصنوبر. جلسوا على الحجارة، رجالاً ونساء وعجزة، الأطفال نائمون في أغطية مُدَّت على العشب الجافّ. زرقة السماء عميقة. جبل «جيلاس» العالي كان يشكّل حائطاً لا يمكن تجاوزه في نهاية الوادي. مشوا طوال النهار. بعضهم تجاوزوا القمة قبل حلول الليل، في حين اختار بعضهم الآخر التوقّف في كنيسة «لامادون» حيث ناموا في العراء. ربما أمطرت السماء تلك الليلة كما هي العادة في أعالي الجبال. نصبوا خيمهم المؤقّتة واحتموا تحت شرفة الكنيسة أو بين خرائبها.

لا أستطيع منع نفسي من العودة إلى هذه القصة حتى وإن لم تكن معروفة أو ممجّدة، حتى وإن لم تكن سوى لحظة في مسيرة حرب خلّفت ملايين القتلى في العالم. لقد كنت هنا، تفصلني عن المأساة بضعة كيلومترات، في اللحظة نفسها، تحت السماء نفسها والغيوم نفسها.

أهي القصة نفسها؟ روت أمي لاحقاً ما جرى في أسفل الوادي بالقرب من «روكبيليير». مرور اليهود عبر قمة «فينيستر» موثّق. لقد تحدّث عنه

المؤرّخون (ألبيرتو كافاغليون نشر في إيطاليا عملاً عنوانه «في الليل الغريب»). هروب العائلات اليهودية من «سان مارتان» إلى «لاستورا» وأسْرهم من قبل الميليشيات الفاشية في «بورغوسان» و«دالمازو»، ونقلهم بالقطار من «فينتيمليه» إلى «نيس»، ومن «نيس» إلى «درانسي».

روت لي القصّة والدتي بعد مرور أربعين عاماً. لم تكن قصّة مكتوبة بل متداولة من قبل سكّان وادي «فيزوبي» فقط. نقلتها لي والدتي مثلما سمعتها هي من آخرين. هنا أيضاً أنا جزء منها، لأني من دون شك كنت قد سمعتها في الماضي دون أن أفهمها، مثلها مثل الانفجار الذي بعثر أجزاء جسد ماريو في الصباح الباكر. مجموعة من الفارّين تسعى لعبور الحدود نحو إيطاليا اختارت سلوك طريق «بيرثيمون»، لأنهم قدموا من نيس، وكانوا يتخوّفون ألّا يسعفهم الوقت في الوصول إلى قمة «فينيستر». من «بيرثيمون» تبدو الحدود قريبة، ولكن ذلك ليس إلا وهماً. بعد الخروج من القرية تصبح الدرب شديدة الانحناء وتمرّ في مزارع جبلية تواكبها من حين إلى آخر أكواخٌ حجرية في الجبال العالية. ما كانوا يجهلونه هو أنّ الألمان قد أقاموا مركز مراقبة على الحدود في أعالي المراعي. لا بدّ أن هذه المراعي كانت تبدو ساحرة تحت السماء الزرقاء لهؤلاء الرجال والنساء والأطفال الذين يسيرون تحت الشمس الحارقة. لا بدّ أنهم شعروا أنهم فرّوا من جحيم المعارك نحو بلدٍ مثاليّ يعمّه السلام. سويسرا ربما. على أحد الانعطافات، فاجأتهم دورية ألمانية. رشّتهم جميعاً بلا تفرقة، رجالاً ونساءً وأطفالاً. دفن الجنود الجثث على عجل (ربما فعل ذلك سجناء) في خنادق هِيل عليها التراب ونما فوقها العشب. أحدهم شهد ما حدث، راعٍ ربما، أو أحد الهاربين استطاع النجاة من المجزرة. بقي هذا في

ذاكرة الجبل ولم يخرج منها، ذاكرة العشب، والأكواخ الحجرية، والطيور التي أفزعها إطلاق الرصاص، بقي في صدى فرقعة الرصاص التي دوّت على منحدرات الجبال على الحدود، قريباً جدّاً مني لدرجة أني سمعتها كهدير عاصفة اختلط بصوت الماء المترقرق بين الصخور.

هل يبقى المرء نفسه بعد أن يسمع هذا الصوت في طفولته؟! هل بإمكانه النسيان؟! الذاكرة، إنها ليست كلمات وحسب ولكن حكايات. إنها الوقت الذي لا يمضي. أيام السلم، تمرّ حياة الأطفال على إيقاع الأيام والنشاطات واللقاءات والألعاب والأعياد. بالنسبة لنا، نحن الذين كنا حبيسي المنزل، كانت الأيام والليالي تمرّ متشابهة. حتى ولو كان الأطفال اليانعون لا يعون انتماءهم إلى عائلة وإلى بلد، لكنّهم يعرفون أنهما موجودتان. يعرفون أنّ هنالك إطاراً داخلياً وآخر خارجياً، حدود ومنزل. أما ما بعدهم فهو المجهول والغريب والخطر.

وصول الجنود الأميركيّين إلى «روكبيلير» في نهاية عام 1944، أعرف أني شهدته ولكنّي لا أذكره تماماً. وقفت على جانب الطريق عند مدخل القرية مع أخي وجدّتي ووالدتي. تُصدر المصفّحات ضجيجاً صاخباً كالرعد، تتبعها الدبّابات. ما أعرفه، لأنّه رُدِّد على أسماعي مئة مرّة، أن أخي الأكبر الذي كان حريصاً على الالتزام بالقواعد المرورية صُدم لرؤيته عربات جيش التحرير لا تلتزم بقانون السير. على الطرقات الجبلية في ذلك الزمن، كان هنالك منعطفات بمسارين، أحدهما صاعد ملتفّ والآخر نازل ومستقيم. كانت العربات المجنزرة تسير في الطريق النازل بالاتجاه المخالف.

أصحيح أننا نحن الأطفال (صبيان القرية وبناتها) ركضنا على طول الطريق لنطلب من الأميركان علكة وشوكولاتة؟ أصحيح أن القوّات الألمانية أثناء مرورها في «روكبيلير» وزّعت الشوكولاتة على الأطفال، وأن جدّتي خطفتها من أيدينا ورمتها كما لو كانت سمّاً؟ فيما كان يعمل لحساب الشيوعيّين إبان حرب فيتنام، روى الكاتب الصيني «آلاي» أنّ جيش الاحتلال الصيني تلقّى في هانوي ألواح شوكولاتة لتوزيعها على الأطفال الفيتناميّين، وأن امرأة أخذت لوح شوكولاتة أعطاه جنديّ لتوّه إلى حفيدها ورمته في مسيل المياه. الأطفال الذين وُلدوا في الحرب لا يعون شيئاً مما يحيط بهم. ألهذا السبب أرتنا أمّي تقهقر الجيش الألماني من خصاص النافذة قبل التحرير بوقتٍ قليل؟ على الطريق المارّ أمام منزلنا، شاحنات أضواؤها الأمامية مُشعَلة، ودبابات، وجنود راجلون يتقدّمون دون صخب. علمت في ما بعد أن ذلك كان ما تبقّى من الفيلق الإفريقي المنسحب عبر ليبيا في طريقه إلى ألمانيا. لماذا مرّوا من أمام نوافذ منزلنا؟ يرنّ اسم المارشال رومل في ذاكرتي، ولكن من الأكيد أنه لم يكن يرافق جنوده. لقد استقلّ طائرة إلى برلين حيث سيُقدم على الانتحار لاحقاً. خلال هذه الأشهر والسنوات اختلط كلّ شيء في نفسي. الحرب وما بعدها والتحرير، ذلك كان للبالغين. نحن الأطفال لا شيء أو لا أحد قادرٌ أن يحرّرنا. نعيش كلّ يوم بيومه. الذكرى الحقيقية الأولى بعد انتهاء الحرب كانت في «نيس». الكولونيل جورج بروشنيك، زوج خالتي، بلباس فرقة «لي شاسور ألبان» يشتري لنا البوظة على شاطئ البحر. كانت تلك المرّة الأولى التي أتذوّق فيها طعمها. جرّبت أيضاً البيريه خاصّته. لا يمكنني أن أنساه يوماً.

من الصعب أن ينسى المرء سنوات الانغلاق والانفصال هذه حتى بعد انتهاء الحرب. لي صورة تُظهرني وأخي واقفين على شاطئ «الاريزيرف» في نيس ونحن نرتدي اللباس الخاص بسكّان الجبال. إنه شتاء 1945 وكنّا ما زلنا نلبس ثياب الريف، التي هي عبارة عن سترة من جلد الخروف وجزمات طويلة. كانت وجوهنا عابسة من ضوء الشمس في أعيننا. بدَونا كصبيّين متوحّشَين خرجا للتوّ من وكرهما. احتجنا إلى وقت طويل لنخرج من الحالة القديمة. هل خرجنا حقّاً؟ يلزم الكثير من الوقت لسدّ الفراغ والجوع والخوف والجهل. لزمتنا رحلة إلى الجانب الآخر من العالم، إلى نيجيريا حيث حرّيّة الأدغال بلا حدود بالقرب من نهر «كروس»، والسماء العاصفة وأصوات الحيوانات المتوحّشة في الليل.

كانت فترة ما بعد الحرب مساراً صعباً وبطيئاً: الرحيل عن الجبل، العشّ المظلم والحزين الذي نشأنا فيه والعودة إلى المدينة. نسيان الجوع. ربما كان هذا هو العمل الأكثر مشقّةً في طفولتي. استمرّت محنتنا إلى ما بعد مجيء الأميركان. انتقلنا للعيش مجدّداً في شقّة جدّتي في الطابق السادس تحت السطح مباشرة، ولكن لا شيء تغيّر على أرض الواقع. كان علينا العراك للحصول على الطعام والفحم ونشارة الخشب والملابس. وجب الوقوف في الطابور وامتلاك قسائم تموين لكلّ فردٍ في العائلة للحصول على الحليب والزيت والدهن الحيواني وحتى التبغ (كان جدّي يستخدم كلّ قسائم التبغ الخاصة بالعائلة). استمرّ الفراغ يحفر وسط جسدي وعقلي ورئتيّ. ما من شيءٍ أكيد. الموت ما زال يحوم في الأجواء. كان هنالك جارٌ لجدّتي يصفّق براحتيه كلّ مرة أخرج إلى باحة

البناء. كان طويلاً وقويّ البنية لدرجة أن صفقة يديه ترنّ كصوت إطلاق الرصاص. كانت هذه طريقته في مناداتي. اسمه «أوجيه» وأعلم أنه صديق العائلة. حين كنا نزوره يحملني بذراعيه. يعود الفضل إليه ربما أني تعلّمت كلمة «مقاوم». كان عضواً في شبكة مقاومة أثناء الاحتلال الألماني، ينقل الرسائل المشفّرة ويحمي اليهود. السيّد «أوجيه» مقاومٌ إذاً. كنت أتلقّى هذه الكلمة كما لو أنها تعني «عملاق» أو «إنه قويّ جدّاً». تلقّيت خبر موته في أحد الأيام. أصيب بالتيفوئيد وتوفّي بعد ذلك بأيام. نخر المرض أحشاءه ومزّقها. عملاق يصفّق براحتيه لدى خروجي إلى الباحة. أكانت هذه هي الحرب؟ شخص نحبّه يختفي فجأة؟

كيف لي أن أملأ الفراغ الذي خلّفته الحرب منذ طفولتي؟ كلّ هذه السنوات الضائعة، المنغلقة، المنعزلة، التي وسمها الجوع، كيف أتصالح معها؟! كيف لي أن أقبلها؟!

غياب والدي عند ولادتي وأثناء طفولتي المبكرة جعلني أشعر كما لو كنت يتيماً أو لقيطاً. إيجاد الكلمات لوصف هذا الغياب أو هذا الهجر لن يساعدني في قبوله. فليس هو من انفصل عنا، العالم كان في حالٍ من عمَهانٍ وجنون باعد بين الطفل ووالده. بالنسبة للوالد، لم تكن المسافة تعني شيئاً. لقد انخرط في صفوف الجيش البريطاني كطبيب وسافر إلى غوايانا والكاميرون ثم نيجيريا. كان ذلك جزءاً من عمله كرجل. كان لديه خططه كي تلتحق زوجته وأطفاله به في أسرع وقت. حبلت أمي بي وقت السلم، وقد خطّط لأخذ عطلة في آذار أو نيسان كي يكون حاضراً بالقرب من والدتي يوم الولادة. حين اندلعت الحرب وهُزمت فرنسا خلال أسابيع

أدرك خطأه. لم تكن هزيمة فرنسا وحدها ما أثار هلعه، هنالك أيضاً جوّ الخيانة العام السائد في البلد الذي كانت زوجته وأطفاله عالقين فيه. رسائله لأمي في بداية النزاع كانت متفائلة. طلب منها الذهاب بسرعة إلى بروتاني بعيداً عن المناطق الساخنة. حين احتلّ الجيش الألماني كامل الشمال حتى المحيط أدرك أن أمله بلقاء عائلته أصبح سراباً. محاولته الوصول إليهم عبر الصحراء الكبرى فشلت بسبب ضابط فرنسي ناقم في «تامانراسيت»، وتحوّلت إلى تجربة مأساوية بالنسبة له. كان ذلك يعني أن الأشخاص الذين يحبّ، الذين يشكّلون عائلته الوحيدة (كان قد هجر كلّ شيء في موريشيوس من أجلهم) تُركوا ليواجهوا مصيرهم وحدهم في بلدٍ لم يعد فيه قانونٌ أو أمان أو مستقبل. بلد أصبح رهينة الجريمة والنهب والاغتصاب والكذب على مستوى الدولة. عنى هذا أيضاً أنّ فرنسا خانتهم ولفظتهم إلى الهامش وحكمت عليهم بالموت. رسائله الأخيرة إلى أمي كانت واضحة لا لبس فيها: بقبولها للغزو ورفضها المقاومة وفتح أبواب باريس للمحتلّ، إنّ الحكومة الفرنسية تحالفت مع ألمانيا النازية ضد إنكلترا. هذه الخيانة زعزعت حبّه لفرنسا التي كانت تبدو له من موريشيوس كقلعة الحضارة. كتب لأمي موصياً إيّاها ألّا تعير بالاً للأكاذيب التي تنشرها الصحافة عن الإنكليز، وأنها من الآن فصاعداً لا يمكن لها أن تأمل شيئاً إلا من المقاومة التي يبديها البريطانيّون ضد هتلر، الأمر الذي كلّفهم كلّ هذا القصف للندن. انقطعت الأخبار ودام ذلك خمس سنوات. سنوات خمس لم يستطع والدي خلالها التراسل مع والدتي نهائياً. نشأت هوّة بينهما كما لو كان كلّ واحدٍ منهما ميتاً في نظر الآخر.

عاشت أمي على الطرف الآخر من الهوّة يفصلها عن زوجها ما هو

أبعد من المحيط. يفصلهما الصمت وأفول الانسجام والإنسانية. يفصلهما القطيعة بين البلد الذي وُلدت ونشأت فيه وبلد الرجل الذي تزوّجته وأنجبت منه أطفال.

نسوة أخريات عِشن الانفصال أيضاً بسبب وجود أزواجهن في المعتقلات، في ألمانيا أو بولندا. الكثير منهن تصرّفن بشكل بطولي وربّين أطفالهن وحيداتٍ، وأثبتن براعة وشجاعة في وجه الضائقة المادية. لم يسنح لجميعهن إرسال رسائل مشفّرة لأزواجهن في المعتقلات، أو هدايا أو كلمات تعبّر عن الحبّ مطرّزة. ولكن على الأقل لم يكن عليهن الاختباء من العدوّ الألماني أو المُخبر الفرنسي. كان بإمكانهن انتظار التحرير وعودة أحبابهن. أما والدتي، فإنها لم تكن على دراية بشيء، ولم تكن تنتظر من المستقبل إلّا الأمل المبهم وغير الأكيد أن الحرب ستنتهي يوماً، وأن الحدود ستُفتح من جديد، وسيُسمح لها ولأولادها بالذهاب إلى إفريقيا للقاء زوجها الذي تحبّ.

أجد صعوبة في تخيّل كيف استطاعت هذه المرأة الاستمرار، كيف استطاعت هذه المرأة، التي هي فنّانة قبل كلّ شيء تعزف على البيانو مقطوعات لشوبان وليزست ودوبوسي، أن تصبح ربّة عائلة مع كلّ المسؤوليات التي يتطلّبها ذلك: اتخاذ القرار بالذهاب بالسيارة -مع والديها (والدها بريطاني وكان يلزم إيجاد مخبأ آمن له)، وولديها، رضيع في شهره السادس وآخر عمره سنتان ما زال يرضع، لأنه لم يكن يوجد أيّ شيء آخر لإطعامه (لهذا السبب للأنثى البشرية ثديان)- عبر أنقاض فرنسا على الطرقات التي خرّبتها القنابل وضمن مشهد مزروع بحواجز الشرطة الفرنسية والغيستابو الألماني، والتفاوض مع القيادة الألمانية للحصول

على قسائم البنزين، وتصليح حاقن الوقود المسطوم في السيارة. كل هذا للوصول إلى نيس حيث الحرب قادمة لا محالة.

كيف أستطيع أن أملأ هذا الفراغ؟ كيف أستطيع أن أملأ منزل طفولتي الرمادي، أن أخترع منظراً لأراه من خلال النافذة التي أعتمت باستخدام أوراق زرقاء اللون، ومن خلال الدرف المحصّنة ضد الرصاص الطائش؟ في إحدى الليالي من صيف 1944، رأيت في سماء الجبل رقصة باليه الرصاصات الخطّاطة، كما لو كانت يراعاتٍ مذهلة. هل سمحت لنا جدّتي ووالدتي بمشاهدتها لأنها كانت تعني اقتراب نهاية الحرب؟ أجمع الأشياء الضائعة. الأشياء التي نُهبت أثناء الانسحاب الألماني. هذه اللوحة لغريكو التي تزيّن غرفة الطعام في شقّة جدتي الباريسية كانت أمي تكرهها جدّاً. تمثّل اللوحة وجه يوسف الحزين بعد أن باعه أشقّاوه. سُرقت هذه اللوحة في عربة قطار مصفّحة قُصفت بعد ذلك في مكانٍ ما على طريق الجنوب ونُهبت من قبل اللصوص. ما بقي منها هي نسخة رسمها «هيبوليت فلاندران» معلّقة على جدار كنيسة في الحيّ اللاتيني. من الأشياء الضائعة أيضاً -التي بادلتها جدّتي مقابل الغذاء والفحم والأدوية، هذا الخداع الطويل والسخيف الذي يسمّى «السوق السوداء»- حليّ ذهبية وحليّ تعود إلى «لابيل إيبوك»(*) وأوشحة حريرية أو من فرو السمّور، وكؤوس من مدينة البندقية.

الجانب الآخر من الحرب هو الشرنقة اللذيذة التي كنا نحتمي بها أنا

---

(*) La Belle Époque (الحقبة الجميلة): مصطلح يُطلق على فترة من التاريخ الفرنسي والأوروبي، بين (1871-1880) واندلاع الحرب العالمية الأولى في عام 1914. وهي فترة اتسمت بالسلام والازدهار الاقتصادي والتطوّر الثقافي، وازدهار الفنون. [م]

وأخي. كلّ ليلة ننضمّ إلى جدّتي أليس في سريرها، لنستمع إليها تروي مغامرات القرد «مونامي» الشاطر الذي يتدبّر أمره لإيجاد الطعام بسرقة الفواكه من البساتين وإخراج السكاكر من الجرار وبخداع الجميع كي يستمر على قيد الحياة. سمحت لنا مغامرات مونامي في أن ننسى العنف للحظة، والجريمة التي كانت تحوم في أزقّة القرية على الجانب الآخر من الدرف المغلقة. سمحت لنا بأن ننسى جوعنا مؤقّتاً. حين بدأت في كتابة روايتي الأولى «رحلة طويلة» عام 1947 على ظهر المركب الذي كان يقلّنا إلى إفريقيا كنت لا أزال أفكّر في الجوع. يتوجّه «أورادي» بطل الرواية إلى قبطان السفينة قائلاً: «أنا جائع!» - «إن كنت جائعاً سأعطيك قطّة!» - «لآكلها؟» - «لا، بل عربون صداقة!».

نهاية الحرب لا تعني شيئاً بالنسبة لطفل. الطفل لا يعيش في التاريخ. لا يعرف سوى الحكايات والقصص والكلام الذي يلتقطه من الأحاديث التي تدور حوله وأحلام اليقظة. لا أعرف ما إن شهدت تفجير ميناء نيس من قبل سلاح المتفجّرات الألماني. لا أذكر سوى القنبلة التي أُسقطت من طائرة والانفجار الذي طرحني أرضاً. ولكن حتى هذا أنا لست متأكّداً منه. ربما بنيته في مخيّلتي بالاستناد على أقوال الشهود. هل خلطت بين الأحداث؟ حين عدنا إلى نيس نهاية صيف 44 كان الجيش الألماني قد غادر المدينة، ولكننا لم نكن قد تحرّرنا بعد. كان لا يزال ممنوعاً النزول إلى الشارع. الحدائق المحيطة –حديقة الزيتون الكبيرة حيث كنت أذهب بعد الحرب لأجلس وأقرأ فيرجيل– كانت مفخّخة ومغلقة في وجه الجمهور بأسلاك شائكة تحمل لوحات رُسم عليها جماجم خطر الموت. الشوارع المؤدّية

إلى البحر مغلقة بأسوار من الطوب. اللوحة الأولى التي رسمتها بالطبشور على لوح خشب أبيض تمثّل ما كنت أراه من نافذة جدّتي على الطابق السادس من ڤيلّا «إيدالي»: النخيل وأسطح المنازل الحمراء، المرفأ مع الحيد المدمّر وسارية سفينة نصف غارقة.

كنا نغامر بالذهاب إلى الكراج حيث تتربّع سيارة «دو ديدون بوتون» القديمة على دعامات من القرميد، بعد أن سرق الجنود الألمان إطاراتها. أصبحت مكان اللعب المفضّل لدينا أنا وأخي لوقت طويل بعد انتهاء الحرب. ولكن جدّتي تخلّصت من هذا الهيكل القديم الذي لا بدّ أنه كان يجلب لها ذكرياتٍ سيّئة. باعته لفلّاحٍ من ريف نيس ركّب عجلاتٍ جديدة للسيارة واستخدمها كشاحنة لنقل الخضراوات إلى السوق. آثار الحرب ماثلة في كلّ مكان، على واجهات الأبنية المحفّرة، آثار القذائف على الطرقات، هياكل السيارات المحترقة، ألوان التمويه، والكتابات بالألمانية. شيء شبيه بكلّ ما يراه أطفال العالم في الأراضي التي عاشت فيها الحروب. حين كنّا ننزل درج البناء لنجلب الفحم ونشارة الخشب، كان لدينا طقسٌ يقوم على لمس حفرة في جدار بيت الدرج بأصابعنا كما لو أنّ باستطاعتنا استخراج الرصاصة التي أطلقها جندي ألماني مرعوب. حلمت لوقت طويل أنه أطلق رصاصته هذه علينا!

نهاية الحرب هي عودة التواصل مع العائلة التي حُرمنا من أفرادها بهروبنا إلى الجبل. أحاول تخيّل كيف بدا هذا الأمر بالنسبة لأطفال يعيشون في دائرة العائلة الدافئة والضيّقة – الأعمام والعمّات وأولاد وبنات العمّ، أصدقاء العائلة وأعداؤها أيضاً. العلاقات المهنية للوالدين وزملاء

الدراسة وأولاد الجيران الذين يتعلّم منهم الطفل اللعب والظلم والعراك والضحك. لقد نشأنا كما لو أننا في سجن دون أصدقاء أو أقرباء. بعد عام 1945، خرجنا من وكرنا وبدأنا نلتقي بأناس لم نكن قد سمعنا عنهم في السابق. وجب تقبيلهم والتوجّه إليهم بكلمة عمّ أو عمّة، والإنصات لما يقولونه.

أكثر ما أسهم في بناء شخصيتي في سنوات العزلة الخمس هو الشعور بالغرابة، أكثر حتى من الأخطار التي تعرّضت لها، كما لو أنّ الحرب حفرت هوّةً دائمة بين ما قبل الحرب وما بعدها. استحوذ هذا الفراغ عليّ ونبذ بعيداً كلّ ما سبقني. طفل في الخامسة أو السادسة من عمره لا يعرف كيف يعبّر عن الرفض بالكلمات.

نشعر باختفائه، هذا كلّ ما في الأمر. ننظر إلى العالم القديم بدهشة وهو يختفي. لا يتغيّر بل يهرم ويختفي حرفياً. هذه العمّة الموريشيسية التي كانت في الماضي جميلة وبهيجة تعيش حياةً رائعة مع زوجها، وتقود سيارة توربيدو مكشوفة على الشاطئ الأزرق باتت الآن عمياء تعيش في فقر مدقع، تسكن في شقّة بائسة بالقرب من محطة القطار تحت وطأة دناءة مفتّش حافلات يدخل شقّتها ليضاجع ابنتها المعاقة. غابي، صديقة جدّتي منذ الأزل، الفنّانة الخارجة عن المألوف والمتألقة في شبابها حين كانت تعمل في استوديوهات باتيه وأختها مود تعيشان الآن في ڤيلا مهجورة مكتوب على بابها بالطبشور أنّ هذا المكان هو عشّ لمتعاونين مع الاحتلال. الاثنتان كانتا تموتان من الجوع بصحبة قطيع من القطط نصف البرّيّة. توفيت أكبرهما بعد عدّة أسابيع من التحرير، من السلّ وقلّة التغذية.

هنالك البريئون والمذنبون أيضاً الذين يدركهم الأطفال بوضوح في

خطاب ضد الكهنة لعقيد متقاعد أُصيب في فخذه أثناء غزو المغرب. كانت غاية حديثه التهكّم على الشعوب الأصلية في شمال إفريقيا وفي الهند الصينية ومدغشقر، وفضح العمّال المهاجرين والشيوعيّين واليهود والأميركان، والإنكليز على وجه الخصوص! أهو من أعطانا قناع «شايلوك» الكريه الذي كنا نثير من خلاله خوف جدّتي بإلباسه شملة وقبّعة من اللبّاد، الأمر الذي أثار حنق والدتي، فرمته في النفايات؟ أهو من أعطانا مجلّة «أوزيكوت» والروايات الوطنية التي تحكي عن مغامرات «بارنافو» الجندي الفرنسي وأنثى النمر خاصته آكلة النياكوي؟

لم يجعلني الجوع والخوف والفراغ في سنوات حياتي الأولى صلباً. لقد جعل ذلك مني طفلاً عنيفاً. لا بدّ أن هذا هو قدر كلّ الأطفال الذين وُلدوا في الحرب، ليس لأنهم شهدوا الجرائم والموت والنهب، بل لأنهم أدركوا غريزياً أن القوانين المجتمعية لم تعد موجودة، أنه لم يعد هنالك من وداعة أو من مشاركة، أنه يوجد في مكانٍ ما في الخارج، في الشوارع المهجورة، خلف واجهات الأبنية المقصوفة، في الأراضي المزروعة بالألغام، عرقٌ بشري مختلف، قويّ وخطر. أهذا كان بسبب العنف أو بسبب نقص الأغذية وضعف مناعتي؟ اعتلّت صحّتي مرّاتٍ عديدة بعد انتهاء الحرب. سعالٌ حادّ لا يمكن السيطرة عليه وصل حدّ الإقياء شخّصه طبيب الحيّ على أنه خناق تشنّجي، اتضح في ما بعد أنه السلّ. أذكر صداعاً لا يحتمل للدرجة التي كنت معها أختبئ تحت الطاولة بعيداً عن الضوء. هذا العنف ما زلت أشعر به اليوم كحقد، الشعور المبهم بأني خُدعت، بأني عشت كذبة كبيرة. لقد ربّتنا أنا وأخي نسوةٌ في عالم لم يكن

فيه رجال، فأصبحنا ملكين صغيرين، طاغيتين اعتادا الصراخ حتى تنفّذ طلباتهما. حين انتهى الحبس وصار بإمكاننا فتح النوافذ من جديد، أذكر نوبة صراخ ملحّة انتابتني رميت أثناءها كل ما وقع تحت يدي عبر النافذة من كتب وأشياء وحتى أثاث. أذكر أني بكيت حدّ تمزيق حنجرتي. لم تكن تلك نزوة غضب. كان ذلك هو الغضب بكلّ بساطة. غضب لا دافع له ولا سبب.

في نهاية هذه الطفولة هنالك إفريقيا.

كانت ضرورية ولازمة. لقد انتظر والدي مجيء زوجته وأولاده سبع سنوات. بعد رحلة سريعة إلى فرنسا استمرّت أسبوعاً أو أسبوعين، اجترح والدي خطّة لمستقبلنا: الرحيل عن فرنسا لنعيش معه في نيجيريا، ومن ثم يتقاعد في جنوب إفريقيا حيث يمكننا متابعة دراستنا وبلوغ سن الرشد. كل شيء كان جاهزاً. صديق والدي، «جيفري»، سيستقبلنا في «دوربان» (حيث يقيم جزء من عائلتنا الموريشيسية). ستكون حياة جديدة بعيداً عن فرنسا المدمّاة والمهزومة التي لفظتنا. بعيداً عن مدينة البؤس هذه تحت الشمس التي انخرطت في الفساد من سوق سوداء ووشاية.

لمّا وصلنا إلى إفريقيا كنّا صبيّين هزيلين عديمَي الثقافة ننضح غضباً وعصياناً. أرى نفسي اليوم في صور المهاجرين التي تعرضها الصحافة المرئية والمكتوبة، أولئك الذين فرّوا من بلاد تمزّقها الحروب، بلاد الدمار والجريمة: أفغانستان، سورية، العراق، الصومال، والسودان. كنا نلبس ثياباً مرقّعة مثلهم وكانت تعابير وجوهنا تدلّ على المكر، تلك العلامة التي يتركها العيش في الخوف. مثلهم كنا بحاجة إلى الانتقام من شيءٍ ما،

أن نضرب وأن نصرخ ونعضّ. في البداية، في «أوغوجا»، كنا نركض في السهول العشبية مسلّحين بعصي لتدمير قصور النمل الأبيض. كنا نصطاد العقارب والسحالي، وكنا نستمع ليلاً لأصوات القطط البرّيّة.

الاختلاف يكمن في أننا كنا قادمين من القارة العجوز، المنطقة الأكثر تقدّماً في العالم، والتي لم تستعمل تقدّمها التقني إلا لإنتاج أسلحة الدمار. إفريقيا حضّرتنا. في إفريقيا، القارّة المنسيّة اليوم، عرفنا الحرية للمرّة الأولى ولذّة الحواس، والوفرة التي تقدّمها الطبيعة. ما من شكّ أننا اكتشفنا فيها ظلم الاستعمار، والمعاملة السيئة التي كان يتلقّاها السجناء، وغرور موظّفي الإدارة الاستعمارية، والتجّار الأجانب الذين كانوا يعيشون كالباشوات. ولكن للمرة الأولى منذ وقت طويل -المرة الأولى بالنسبة لي- أكلنا حدّ الشبع، ولم يكن ينتابنا الخوف عند الذهاب إلى الخارج. لم يكن علينا أن نختبئ. لقد انغمسنا في فضاء لا حدود له تحت السماء الواسعة. كنا نعيش كلّ يومٍ مغامرةً في الأدغال على ضفاف نهر كروس. الليل كان مسرحاً رائعاً للعواصف الرعدية تضيئه خطوط البرق والأمطار الغزيرة.

وصلنا إلى إفريقيا، إلى مرفأ هاركور في شهر حزيران 1947، فصل الأمطار، بعد سفرة استمرّت لمدّة شهر مع والدتي على متن السفينة الهولندية «نيجرستروم». كان والدنا ينتظرنا. صعدنا في سيارته من نوع فورد V8 وهي أقرب إلى شاحنة منها إلى سيارة، وانطلقنا نرتجّ على طرقات اللاتريت وعبرنا الأنهار الفائضة. تأكّدنا عندئذٍ أنّ الحرب انتهت.



**جان ماري غوستاف لوكليزيو:**

كاتبٌ فرنسيّ، تعود أصوله إلى جزيرة موريشيوس. وُلد في مدينة نيس في عام 1940. حقّق نجاحاً كبيراً منذ روايته الأولى، ثم تتالت أعماله حتى جاوز عددها أكثر من خمسين كتاباً في الرواية والقصة والمقالات والدراسات. ومن هذه الكتب: «الحمّى»، «الطوفان»، «صحراء»، «ثلاث مدن مقدّسة»، «الباحث عن الذهب»، «ثورات»، «الحلم المكسيكي أو الفكر المنقطع»، وغيرها.

فاز لوكليزيو بجوائز عدّة، من أبرزها «جائزة الأكاديمية الفرنسية» في عام 1980، وجائزة «جان جيونو» في عام 1997، وجائزة «إمارة موناكو» في عام 1998، وغيرها، قبل أن يحصل على جائزة نوبل للآداب في عام 2008، بصفته «كاتب الانطلاقات الجديدة والمغامرة الشعرية والنشوة الحسّية، ومستكشفاً لإنسانية خارج الحضارة السائدة».

**معن السهوي:**

أستاذٌ مساعدٌ في قسم الدراسات الفرنسيّة في جامعة براون بالولايات المتّحدة الأميركيّة، ومدرّسٌ سابقٌ بجامعة دمشق، حاصلٌ على شهادة الدكتوراه في الرواية الفرنسيّة الحديثة.

صدر له مؤلّفان باللّغة الفرنسيّة عن الرواية الفرنسيّة المعاصرة.

صدرت بترجمته عن دارَيْ «سرد للنشر» و«ممدوح عدوان للنشر والتوزيع»: «ألما» و«ثلاث مدن مقدّسة» للكاتب «جان ماري غوستاف لوكليزيو»، رواية «ديزيرادا» للكاتبة ماريز كونديه.

مواسم الحصاد في فصل الصيف، ألوان الأنهار والأسماك والحجارة، دفء الاحتفالات في قرية صغيرة، حقل قمحٍ مواجهٌ للمحيط، واللمسة الرقيقة لأخطبوطٍ صغير على قدمٍ حافية... صورٌ يستحضرها "لوكليزيو" من طفولته المبكّرة في منطقة بروتاني، باعثاً الحياة فيها، بسردٍ آسر، قبل أن ينتقل ليحكي عن مواجهته الأولى مع الحرب، والجوع، والقلق في مدينة "نيس".

في كتابه هذا يذهب الكاتب الفرنسيّ "جان ماري غوستاف لوكليزيو" أبعد من سرد الذكريات، ليقارب الحرب وأثرها الدائم على طفولته، محاولاً فهم الفراغ الغامض الذي تتركه داخل كلّ مَن عايشها، ومن ثم يُشرّح بعمق الطبيعة الثقافية والتاريخية للمدن "الأقلّ حظّاً" في فرنسا، ويورّطك في حبّ مدنٍ لم تزرها يوماً.







ISBN 978-9933-641-97-9
9 789933 641979